
تأليف
د/ عبد الوهاب المسيري
قَضِيّةُ المَرأةِ
بيْنَ التحريرِ.. والتّمَركُز حَولَ الأُنثى

١- بين الإنسان والإنسان الطبيعي.

من الأمور المألوفة في الوقت الحاضر أن نتلَقّى معظم، إن لم يكن كل، ما يأتينا من أهل الغرب بكفاءةٍ منقطعة النظير، دون أن نحاول أن نحلله أو نفسّره، ودون أن ندرك أن ما يأتينا منهم يعكس منظورهم وتحيُّزاتهم (كما هو متوقّع من كل ما هو إنساني).

ولذا ثمة غياب ملحوظ للبُعد النقدي في الدراسات العربية والإسلامية للمفاهيم والمصطلحات الغربية. إذ أننا نكتفي دائمًا بنقل أفكارهم من وجهة نظرهم دون أن نطرح أي أسئلة تنبع من رؤيتنا وتجربتنا التاريخية والإنسانية، ودون أن نتوجّه إلى القضايا الكُلّية والنهائية الكامنة في النصوص التي ننقلها ونشرحها فنحنُ لا نسأل، على سبيل المِثال، عمّا إذا كان الإنسان - كما يتمثّل في النّص الذي ننقله- كائنًا ماديًا بسيطًا أم كائنًا مركّبًا يتجاوز المادة؟ ومن أين يستمد هذا الإنسان معياريته: من قوانين الحركة أم من شيء أكثر تركيبًا؟ هل هناك هدف أو غاية في حياة الإنسان أم أن حياته نهب الصدفة والحرية العمياء؟ وأخيرًا، هل الإنسان هو مركز الكون القادر على تجاوز عالَم المادة، أم أنه كائن لا أهمية له، يذعن لظروفه المادية وللحتميات الطبيعية؟ وإخفاقنا في تعريف البُعد الكُلّي والنهائي هو السبب الكامن وراء ما نلاحظ من خلط بين المفاهيم، إذ يتم تصنيفها والربط أو الفصل بينها على أسس سطحية من التشابه والاختلاف.

وقد ظهر مؤخرًا مصطلح « فيمينزم » الذي يُترجَم إلى (النسوية) أو (النسوانية) أو (الأنثوية) وهي ترجمة حرفية لا تُسمِن ولا تُغْني من جوع، ولا تفصح عن أي مفهوم كامن وراء المصطلح، وقد يكون من المفيد أن نحاول أن نحدد البُعد الكُلّي والنهائي لهذا المصطلح حتى ندرك معناه المُركّب والحقيقي، ولإنجاز هذا لابد أن نضع المصطلح في سياقٍ أوسع، ألا وهو ما نُسمّيه «نظرية الحقوق الجديدة».

فكثير من الحركات التحررية في الغرب في عصر ما بعد الحداثة (عصر سيادة الأشياء وإنكار المركز والمقدرة على التجاوز وسقوط كل الثوابت والكليات في قبضة

الصيرورة) تختلف تمامًا عن الحركات التحررية القديمة التي تصدر عن الرؤية الإنسانية (الهيومانية) المتمركزة حول الإنسان.

وكاتب هذه الدراسة ينطلق من مفهوم معرفي أساسي وهو أن ثمة مواطن اختلافات جوهرية بين الإنسان والطبيعة، فالإنسان يحوي داخله من التركيب ما يُمكّنه من تجاوز عالَم الطبيعة/ المادة، ومقدرته على التجاوز هذه هي سبب ونتيجة في الوقت نفسه لمركزيته في الكون.

ومنظومة التحديث والعلمنة الغربية تدور في إطار ما نُسمّيه «الحلولية الكمونية المادية» أو «المرجعية الكمونية الذاتية». وما يُميّز هذه المنظومة، على مستوى البنية العامة، أن المبدأ الواحد المنظّم للكون ليس مفارقًا له أو مُنزّهًا عنه ، متجاوزًا له، وإنما كامن (حال) فيه، ولذا فالكون (الإنسان والطبيعة) يصبح مرجعيّة ذاته، ومُكتّف بذاته.

هذا هو المبدأ البنيوي العام، أو النموذج الثابت الكامن، ولكن هذا النموذج يأخذ شكل متتالية تتحقق في الزمان، تأخذ شكل حلقات تتبع الواحدة الأخرى، يمكن تلخيصها فيما يلي:

١- الواحدية الإنسانية (الهيومانية): تبدأ متتالية التحديث والعلمنة بأن يواجه الإنسان الكون دون وسائط، فيعلن أنه سيّد الكون ومركزه، موضِع الحلول، ولذا فهو مرجعية ذاته، الذي لا يستمد معياريته إلا منها.

وانطلاقًا من هذا الافتراض، يحاول هذا الإنسان أن يؤكّد جوهره الإنساني (المستقل عن الطبيعة) وأن يتجاوز الطبيعة/ المادة بقوة إرادته وأن يفرض ذاته الإنسانية عليها باسم إنسانيتنا المشتركة، أي باسم الإنسانية جمعاء.

٢- الواحدية الإمبريالية: يتحدّث الإنسان الذي يؤكد جوهره الإنساني باسم كل البشر. ولكن في غياب أية مرجعية متجاوزة لذاته الفردية، ينغلق الإنسان على هذه الذات، فيُصبح تدريجيًا إنسانًا فردًا لا يُفكّر إلا في مصلحته ولذته، ولا يشير إلى الذات الإنسانية وإنما إلى الذات الفردية. حينئذ تصبح الذات الفردية، لا «الإنسانية جمعاء»، هي موضع الحلول. فيؤلّه الإنسان الفرد نفسه في مواجهة الطبيعة وفي مواجهة الآخرين ويصبح إنسانًا إمبرياليًا.

وحينـما يسـتمد هـذا الإنسـان الإمبريـالي معياريتـه مـن ذاتـه الإمبرياليـة التـي تسـتبعد الآخريــن، يصبــح إنســانًا عنصريًــا يحــاول أن يســتعبد الآخريــن ويوظِّفهــم، بــل ويُوظِّــف الطبيعـة نفسـها لحسـابه، وهنـا تظهـر الثنائيـة الصلبـة، ثنائيـة الأنـا والآخـر.

٣- ثنائيــة الإنســان والطبيعــة الصلبــة: بعــد المراحــل الســابقة التــي تتميّــز بالتمركــز حــول الــذات الإنسـانية (إمّـا بطريقـة إنسـانية هيومانيـة، أو بطريقـة عنصريـة إمبرياليـة) يكتشـف الإنسـان تدريجيًـا أن الطبيعـة/ المـادة هـي الأخـرى موضـع الحلـول وأنهـا هـي أيضًـا مرجعيـة ذاتهـا ومكتفيـة بذاتهـا. فتظهـر إثنينيـة وازدواجيـة صلبـة أخـرى، ازدواجيـة الإنسـان المتمركـز حـول ذاتـه الـذي يشـغل مركـز الكـون، مقابـل الطبيعـة المكتفيـة بذاتهـا التـي تشـغل مركـز الكـون.

٤- الواحديــة الصلبــة: سرعــان مــا تنحــل هــذه الازدواجيــة الصلبــة إذ تصبــح الطبيعــة/ المــادة وحدهــا هــي موضــع الحلــول وتحــل الواحديــة الطبيعــة/ المــادة محــل الواحديــة الإنسـانية. فيبـدأ الجوهـر الإنسـاني في الغيـاب تدريجيًـا ويحـل الطبيعـيّ محـل الإنسـانيّ، ويســتمد الإنســان معياريتــه لا مــن ذاتــه وإنمــا مــن الطبيعــة/ المــادة ويــزداد اتحــاده بالطبيعــة إلى أن يــذوب فيهــا تمامًــا، ذوبــان الجــزء في الــكل.

حينئـذ يظهـر الإنسـان الطبيعـي، وهـو إنسـان ليـس فيـه مـن الإنسـان سـوى الاسـم، إنسـان جوهـره طبيعـي/ مـادي وليـس إنسـانيّ، فهـو يذعـن للطبيعـة ويتبـع قوانينهـا، وبعـد أن كان يشـير إلى ذاتـه (الإنسـانية أو الفرديـة)، يصبـح جـزءًا لا يتجـزأ مـن الطبيعـة يشـير إليهـا، أي يتـم تفكيـك الإنسـاني ويتـم ردّه إلى الطبيعـي.

وهكـذا تُقـوَّض مقولـة الإنسـان وفكـرة الطبيعـة البشريـة المنفصلـة عـن قوانـين المـادة، والتـي تتسـم بقـدر معقـول مـن الثبـات والاسـتمرارية، أي أننـا انتقلنـا مـن عـالم يتسـم بالثنائيـة والـصراع، مركـزه الإنسـان أو الطبيعـة، إلى عالَـمٍ واحـديّ مركـزه الطبيعـة/ المـادة وحسـب.

ومـن الجديـر بالملاحظـة أن هـذا العالَـم - رغـم لا إنسـانيته- عالَـمٌ لـه مركـز (لوجوسـنترك في المصطلـح مـا بعـد الحـداثي)، وذا فهـو يتّسـم بمـا نُسـمّيه (الواحديـة الصلبة).

٥- الواحديــة الســائلة: تتصاعــد معــدّلات الحلــول والتفكيــك، وتتعــدد مراكــز الحلــول إلى أن تصبـح الصـيرورة هـي مركـز الحلـول، ويصبـح النسـبي هـو المُطلَـق الوحيـد، ويصبـح التغـيُّر هـو نقطـة الثبـات الوحيـدة، حينئـذ تفقـد الطبيعـة/ المـادة مركزيتهـا، باعتبارهـا المرجعيـة النهائيـة.

ويغيب في نهاية الأمر كل يقين وتسيطر النسبية تمامًا وتتعدد المراكز ويسقط كل شيء في قبضة الصيرورة الكاملة. ويفضي بنا كل هذا إلى عالَمٍ مفكك لا مركز له، ويتحوّل العالَم إلى كيانٍ شامل واحد تتساوى تمامًا فيه الأطراف بالمركز، عالَمٌ لا يوجد يه قمّة أو قاع، أو يمين أو يسار (أو ذكر أو أنثى)، وإنما يأخذ شكلًا مُسطّحًا تقف فيه جميع الكائنات الإنسانية والطبيعية على نفس السطح وتُصَفّى فيه كل الثنائيات، وتنفصل الدوال عن المدلولات فتتراقص بلا جذور ولا مرجعية ولا أُسس. وتصبح كلمة «إنسان» دالًا بلا مدلول، أو دالًا متعدد المدلولات، وهذا هو التفكيك الكامل، وهذا هو الانتقال من الثنائية الصلبة والواحدية الصلبة إلى الواحدية السائلة التي لا تعرف حدودًا ولا قيود. وهو أيضًا الانتقال من عالم التحديث والحداثة (والإمبريالية) إلى عصر ما بعد الحداثة (والنظام العالمي الجديد).

ورغم الاختلاف المعرفي والفلسفي بين الواحدية الصلبة والواحدية السائلة إلا أنه يمكن القول بأن نقط التشابه بينهما - من منظور هذا البحث- أهم من نقط الاختلاف، فجوهرهما هو تغييب الإنساني وتفكيكه وتقويضه، وتذويبه إمّا في عالمٍ مركزه الطبيعة، أو في عالمٍ لا مركز له.

هذا النمط (الواحدية الهيومانية «عالَمٌ مركزه الإنسانية جمعاء» - الواحدية الإمبريالية «عالَمٌ مركزه الذات الفردية» - الثنائية الصلبة «صراعٌ بين الإنسان والطبيعة» - الواحدية الصلبة «عالَمٌ مركزه الطبيعة» - الواحدية السائلة «عالَم بلا مركز سقط في قبضة الصيرورة») هو نمطٌ أساسيٌّ في الفِكر المادي منذ بداية التفكير الفلسفي. ولكنّه يظهر بشكل متبلور في الفلسفات المادية في العصر الحديث، فبَعد مرحلة هيومانية أولية قصيرة (هيومانيزم) تظهر الإمبريالية ثم العنصرية والعداء العميق للإنسان.

ويُقسّم البشر في منظومة نيتشه إلى (سوبرمان) أي الرجل الأعلى، أو الإنسان الذي تجاوز الإنسان، و(سبمان) أي الرجل الأدنى، أو الإنسان الذي هو دون الإنسان.

وهكذا يظهر عالَمٌ صراعيّ ثنائيّ ينقسم فيه البشر إلى: جزار وضحية - قاتل ومقتول - أقوياء وضعفاء - باطشون ومتكيّفون مَرِنون.

ولكن ما يجمع السوبرمان والسبمان أن كليهما لا يُعبّر عن الجوهر الإنساني المتجاوز للطبيعة/ المادة وإنما هو جزء من عالَم الطبيعة/ المادة الدارويني الصراعي الواحدي الصلب. وأسبقية الطبيعة/ المادة على الإنسان تُترجِم نفسها إلى أسبقية الفرد على

المجتمع وأسبقية المصلحة الشخصية والمنفعة الفردية على قيم المجتمع ومتطلّبات بقائه.

هذا العالَم يتّسِم بالحركة الدائمة، ولذا سرعان ما ينحلّ العالَم الثنائيّ الصلب والعالَم الواحديّ الصلب إلى عالَمٍ لا مركز له، في حالة سيولة شاملة، فيحلّ دريدا محل نيتشه، ويحل مادونا ومايكل جاكسون محل طرزان ودراكيولا.

٢- المساواة والتسوية.

يمكن القول بأن حركات التحرر القديمة كانت تنطلق من الواحدية الإنسانية (الهيومانية) ومن الإيمان بتميُّز الإنسان عن الطبيعة وبتفوّقه عليها ومركزيّته فيها ومقدرته على تجاوزها وعلى صياغتها وصياغة ذاته. وكانت تتم المطالبة بالمساواة بين البشر داخل هذا الإطار حيث يقف الإنسان على قمّة الهرم الكوني، كائنًا حرًّا مبدعًا فريدًا.

أمّا حركات التحرر الجديدة فهي لا تنطلق من هذه الافتراضات الفلسفية الإنسانية، بل ترفضها بشكلٍ واعٍ فهي حركات تقبل بالواحدية الإمبريالية (الإنسان في صراع مع أخيه الإنسان) وتدور في إطار الثنائية الصلبة (حرب الإنسان ضد أخيه الإنسان وضد الطبيعة) والواحدية الصلبة (سيادة الطبيعة على الإنسان وإزاحة الإنسان من مركز الكون) والواحدية السائلة (رفض فكرة المرجعية والمركز وأي ثوابت وأي كليات، بما في ذلك مفهوم الإنسانية المشتركة القادرة على تجاوز الطبيعة/ المادة).

فهذه الحركات الجديدة تؤكّد فكرة الصراع بشكل متطرِّف، فكل شيء إن هو إلا تعبير عن موازين القوى وثمرة الصراع المستمر، والإنسان هو مجرد كائن طبيعي يمكن ردّه إلى الطبيعة/ المادة ويمكن تسويته بالكائنات الطبيعية، وبالفعل يتم تسوية الإنسان بالحيوان والنباتات والأشياء إلى أن يتم تسوية كل شيء بكل شيء آخر، فتتعدد المراكز ويتهاوى اليقين ويسقط كل شيء في قبضة الصيرورة، ومن ثم تظهر حالة من عدم التحدد والسيولة والتعدُّدية المُفرِطة.

وفي هـذا الإطـار يمكـن أن يخضـع كل شيء للتجريـب المسـتمر خارج أي حـدود أو مفاهيم مُسـبَقة (حتّـى لـو كانـت إنسـانيتنا المشـتركة التـي تحققـت تاريخيًـا) ويبـدأ البحـث عـن «أشـكال» جديـدة للعلاقـات بـين البـشر لا تهتـدي بتجـارب الإنسـان التاريخيـة، وكأن عقـل الإنسـان بالفِعـل صفحـة ماديّـة بيضـاء، وكأنـه لا يحمـل عـبء وعيـه الإنسـاني التاريخـي، وكأنـه آدم قبـل لحظـة الخَلـق، قبـل أن ينفـخ اللـه فيـه مـن روحـه، فهـو قطعـة مـن الطـين التـي يمكـن أن تُصـاغ بـأي شـكل لا فـارق بينهـا وبـين أي عنـصر طبيعـي/ مـادي آخـر.

ولـذا نجـد جماعـات التحـرر الجديـدة (المتحـررة مـن مفاهيـم الإنسـانية المشـتركة ومـن عـبء التاريـخ، والمدافعـة عـن التجريـب المُنفَتِـح المسـتمر) تدافـع عـن الفقـراء والسُـود والشـواذ جنسـيًا والأشـجار وحقـوق الحيوانـات والأطفـال والعُـراة والمخـدرات وفقـدان الوعـي وحـق الانتحـار، وعـن كل مـا يطـرأ ومـا لا يطـرأ عـلى البـال.

ولعـلّ شـيوع الواحديـة الماديـة الصلبـة والسـائلة في العـصر الحديـث (التـي تـرى أن العـالم مكـوّن مـن جوهـر واحـد، وأنـه لا يوجـد فـرق بـين الإنسـان والطبيعـة) هـو الـذي يُفَسِّر سر انتشـار الديانـات الطبيعيـة والعبـادات الجديـدة بمـا في ذلـك عبـادة الشـيطان والنزعـات الكونيـة، فكلهـا دعـوات تؤكِّـد أسـبقية الطبيعـة عـلى الإنسـان والفـرد عـلى المجتمـع، وتدعـو الإنسـان إلى الذوبـان في الطبيعـة، وتلغـي كيانـه كمقولـةٍ لهـا حدودهـا المُسـتقِلّة، وتفـكك مقولـة الإنسـان وتُقوِّضهـا، ثـم ينتهـي الأمـر بهـذه الدعـوات إلى رفـض فكـرة العالَـم المُتماسِـك الـذي يـدور حـول مركـز مـا ليحـل محلـه عالَـمٌ سـائل لا مركـز لـه.

ويُعـدّ رفـض الإنسـان تأييـد هـذه الدعـوة للإيمـان بأسـبقية الفـرد عـلى المجتمـع وللتسـوية بـين الإنسـان والطبيعـة فِعـلًا رجعيًـا ورفضًـا للتقـدُّم (مـن منظـور نظريـة الحقوق الجديـدة)، مـع أن موقـف الرفـض هـذا هـو في واقـع الأمـر محاولـة للعـودة إلى فكـرة الإنسـان الاجتماعـي الحضـاري، المُسـتَقِل عـن الطبيعـة، القـادر عـلى تجاوزهـا، صاحـب الإرادة والوعـي، هـو رفـض للحالـة الطبيعـة الماديـة (البهيميـة)، ومسـاواة الإنسـان وتسـويته بالحيـوان، ودفـاع عـن أسـبقية المجتمـع عـلى الفـرد وعـن مركزيـة الإنسـان في الكـون.

في هـذا الإطـار، يمكننـا أن نعيـد النظـر في هـذا الدفـاع الـشرس عن الشـذوذ الجنـسي، فهو في جوهـره ليـس دعـوة للتسـامح أو لتفهُّـم وضـع الشـواذ جنسـيًا (كـما قـد يـتراءى للبعـض لأول وهلـة)، بـل هـو دعـوة لتطبيـع الشـذوذ الجنـسي، أي جعلـه أمـرًا طبيعيًـا عاديًـا، الأمـر الـذي يُشـكّل هجومًـا عـلى طبيعـة الإنسـان الاجتماعيـة وعـلى إنسـانيتنا المشـتركة كمرجعيـة

نهائيـة وكمعيـار ثابـت يمكـن الوقـوف عـلى أرضـه لإصـدار أحـكام إنسـانية ولتحديـد مـا هـو إنسـاني ومـا هـو غـير إنسـاني، أي أن الشـذوذ الجنـسي لم يَعُـد مجـرد تعبـير عـن مـزاج (أو انحـراف) شـخصي، وإنمـا تحـوّل إلى أيديولوجيـة تهـدف إلى إلغـاء ثنائيـة إنسـانية أساسـية هـي ثنائيـة الذكـر/ الأنثـى التـي يسـتند إليهـا العمـران الإنسـاني والمعياريـة الإنسـانية.

والحديـث المتواتـر والمتوتِّـر عـن (حقـوق الإنسـان)، والـذي تقـوده وتُموِّلـه وتدعمـه أكـثر الـدول الإمبرياليـة في العالَـم، أي الولايـات المتحـدة، هـو في جوهـره هجـوم عـلى مفهـوم الإنسـانية المشـتركة.

فالإنسـان الـذي يتحدّثـون عـن حقوقـه هـو وحـدة مسـتقلة بسـيطة كميـة، أحاديـة البُعـد، غـير اجتماعيـة وغـير حضاريـة، لا علاقـة لهـا بـأسرة أو مجتمـع أو دولـة أو مرجعيـة تاريخيـة أو أخلاقيـة، هـو مجموعـة مـن الحاجـات (الماديـة) البسـيطة المجـرّدة التـي تحددهـا الاحتـكارات وشركات الإعلانـات والأزيـاء وصناعـات اللـذة والإباحيـة (وفي نهايـة الأمـر صناعـة السـلاح أهـم الصناعـات في العـصر الحديـث وأكثرهـا فتـكًا وتفكيـكًا).

والفـرد حسـب هـذا التصـوُّر يقـف وحيـدًا يتلقّـى عديـدًا مـن الإشـارات الحسـيّة البسـيطة الكثيفـة مـن مؤسسـات عامـة لا خصوصيـة لهـا ولا تحمـل أي قيـم، إلا فكـرة تعظيـم لـذة المُسـتهلِك وزيـادة أربـاح الـشركات.

فالفـرد إن هـو إلا إنسـان طبيعـي، شيء طبيعـي/ مـادي بـين الأشـياء الطبيعيـة الماديـة، إفـراز مبـاشر لمفهـوم العقـد الاجتماعـي البورجـوازي، الـذي يـرى أسـبقية الفـرد الطبيعـي عـلى المجتمـع غـير الطبيعـي، وهـو العقـد الـذي تحـوّل في منتصـف القـرن التاسـع عـشر إلى العقـد غـير الاجتماعـي الداروينـي، الـذي يفـترض حـرب الجميـع ضـد الجميـع (كـما تنبـأ فيلسـوف البورجوازيـة الأكـبر، تومـاس هوبـز في عـصر «النهضـة» في الغـرب).

ولـذا، لا يتحـدّث أحـد عـن حـق الإنسـان (الاجـتماعي) والمجتمعـات الإنسـانية في البقـاء داخـل منظوماتهـا القيميـة وخصوصياتهـا القوميـة. ولم يطـرح أحـد قضيـة صناعـة الإباحيـة وسـلعها المختلفـة التـي تُصـدَّر مـن الغـرب، والتـي تهـدر أبسـط الحقـوق الإنسـانية وتحـوّل الإنسـان إلى كـمّ مـادي لا قداسـة لـه. وكذلـك لم يناقـش أحـد قضيـة حقـوق الشـعوب التـي تُنهَـب ثرواتهـا وتُـسرَق أموالهـا، ثـم تُـوْدَع في بنـوك غربيـة مـن قِبَـل شـخصيات تسـاندها نفـس الحكومـات التـي تـصرخ ليـل نهـار مطالبـة بالحفـاظ عـلى حقـوق الإنسـان الفـرد.

ولم يطالب أحد بوقف صناعة أسلحة الفتك والدمار التي تُطَوّر ويُصنَع معظمها في العالم الغربي والتي تمتص ميزانيات الشعوب وتُلوِّث البيئة وتدمِّر آلاف الأنفس كل عام. فالحديث دائمًا يجري عن إنسان مجرّد بسيط لا يوجد داخل المجتمع والتاريخ والحضارة والأسرة. ومن ثم ينصبّ الحديث على الحقوق المُطلَقة لهذا الفرد، أي حقوق المجتمع ومنظوماته الأخلاقية والمعرفية، ولكن هذا الفرد الحر من الناحية النظرية، يسقط بالفعل في قبضة الصيرورة، التي تتحكّم فيها أجهزة الإعلام الغربية والشركات عابرة القارات وصناعة اللذّة.

ويظهر الهجوم على فكرة المجتمع الإنساني ومفهوم الإنسانية المشتركة (الإنسانية جمعاء) في المفهوم الجديد للأقلّيات الذي يروّجه النظام العالمي الجديد وهيئة الأمم المتحدة وبعض الجماعات التي تدور في فلكها ودعاة نظرية الحقوق الجديدة. فالجماعات الدينية أقلّية، والجماعات الإثنية أقلّية، والشواذ جنسيًا أقلّية، والمعوّقون أقلية، والمُسِنّون أقلّية، والبدينون أقلّية، والأطفال أقلّية، والنساء أقلّية.

وفكرة أن كل الناس أقلّيات، تعني أنه لا يوجد أغلبية، أي لا يوجد معيارية إنسانية ولا ثوابت، ومن ثم تصبح كل الأمور نسبية متساوية وتسود الفوضى المعرفية والأخلاقية. وإذا كان لكل أقلّية حقوق «مُطلَقة»، فإن هذا يؤدي في واقع الأمر إلى أن فكرة المجتمع الذي يستند إلى عقد اجتماعي وإلى إيمان بإنسانيتنا المشتركة تصبح مستحيلة، إذا أن الحقوق المُطلَقة التي لا تستند إلى أي إطار مشترك لا يمكنها التعايش.. (وهذا ما حدث في فلسطين المحتلّة حين جاء الصهاينة بحقوق يهودية مُطلَقة لا تعرف الإنسانية المشتركة فقاموا بطرد الفلسطينيين من أرضهم وهدم وطنهم).

٣- السياق الحضاري المعرفي لحركتي تحرير المرأة والتمركز حول الأنثى.

هذه الأفكار تُشكّل الإطار الحقيقي لحركة الفيمينزم التي ظهرت مؤخرًا في الغرب، وقد ظن البعض أن مصطلح «فيمينزم» هذا مجرد تنويع على مصطلح «ومنز ليبراشن موفمنت» الذي يُتَرجم عادةً إلى (حركة تحرير المرأة والدفاع عن حقوقها). ولذا حل المصطلح الجديد تدريجيًا محل المصطلح القديم وكأنهما مترادفان أو متقاربان في المعنى، وكأن المصطلح الجديد لا يختلف عن القديم إلا في أنه أكثر شمولًا أو أكثر راديكالية.

ولكننا لو دققنا النظر لوجدنا أن المصطلح الجديد مختلف تمام الاختلاف عن مدلولات حركة تحرير المرأة (وهي واحدة من حركات التحرر القديمة التي تدور في إطار إنساني هيوماني يؤمن بفكرة مركزية الإنسان في الكون، وبفكرة الإنسانية المشتركة التي تشمل كل الأجناس والألوان وتشمل الرجال والنساء، وبفكرة الإنسان الاجتماعي الذي يستمد إنسانيته من انتمائه الحضاري والاجتماعي). والإنسان من منظور حركة تحرير المرأة كيان حضاري مُستقِلّ عن عالَم الطبيعة/ المادة لا يمكنه أن يوجد إلا داخل المجتمع، ولذا لا يمكن تسويته بالظواهر الطبيعية/ المادية.

ومن ثم تحاول هذه الحركة أن تدافع عن حقوق المرأة داخل حدود المجتمع وخارج الأُطر البورجوازية الصراعية الطبيعية/ المادية الداروينية التي ترى المجتمع باعتباره ذرّات متصارعة.

والمرأة من ثم، في تصوُّر هذه الحركة، كائن اجتماعي يضطلع بوظيفة اجتماعية ودور اجتماعي، ولذا فهي حركة تهدف إلى تحقيق قدر من العدالة الحقيقية داخل المجتمع (لا تحقيق مساواة مستحيلة خارجة) بحيث تنال المرأة ما يطمح إليه أي إنسان (رجلًا كان أم امرأة) من تحقيق لذاته إلى الحصول على مكافأة عادلة (مادية أو معنوية) لما يقدّم من عمل.

وعادةً ما تطالب حركات تحرير المرأة بأن تحصل المرأة على حقوقها كاملة: سياسية كانت (حق المرأة في الانتخاب والمشاركة في السُلطة)، أم اجتماعية (حق المرأة في الطلاق وفي حضانة الأطفال)، أم اقتصادية (مساواة المرأة في الأجور مع الرجل).

وبرغم أن دعاة حركة تحرير المرأة قد يستخدمون أحيانًا خطابًا تعاقديًا، وقد ينظرون أحيانًا للمرأة باعتبارها فردًا مُستقِلًا بذاته من المجتمع لا باعتبارها أمًّا وعضوًا في أسرة، أو قد ينظرون إليها باعتبارها إنسانًا اقتصاديًا أو جسمانيًا (أي إنسانًا طبيعيًا ماديًا) لا إنسانًا إنسانًا، إلا أن الإطار المرجعي النهائي هو الرؤية الإنسانية التي تضع حدودًا بين الإنسان والطبيعة وتفترض وجود مركزية إنسانية ومعيارية إنسانية ومرجعية إنسانية وطبيعة إنسانية مشتركة، ولذا تأخذ حركة تحرير المرأة بكثير من المفاهيم الإنسانية المستقرة الخاصة بأدوار المرأة في المجتمع، وأهمها، بطبيعة الحال، دورها كأمّ.

ولـذا يتحـرك برنامـج حركـة تحريـر المـرأة داخـل إطـار مـن المفاهيـم الإنسـانية المشـتركة، التـي صاحبـت الإنسـان عـبر تاريخـه الإنسـاني، مثـل مفهـوم الأسرة باعتبارهـا أهم المؤسسـات الإنسـانية التـي يحتمـي بهـا الإنسـان ويحقـق مـن خلالهـا جوهـره الإنسـاني ويكتسـب داخل إطارهـا هويّتـه الحضاريـة والأخلاقيـة، ومثـل مفهـوم المـرأة باعتبارهـا العمـود الفقـري لهـذه المؤسسـة، ولا تطـرح أفـكارًا مسـتحيلة ولا تنزلـق في التجريـب اللانهـائي المسـتمر الـذي لا يسـتند إلى نقطـة بـدء إنسـانية مشـتركة ولا تحـدّه أيـة حـدود أو قيـود إنسـانية أو تاريخيـة أو أخلاقيـة. هـذا هـو الإطـار الحضـاري والمعـرفي لحركـة تحريـر المـرأة وهـذه هـي بعـض ثوابتهـا، وقـد كان هـذا هـو أيضًـا الإطـار الأسـاسي لحـركات التحـرر في الغـرب حتّـى منتصـف الستينات.

ولكــن الحضــارة الغربيــة دخلــت عليهــا تطــوًّرات غــيّرت مــن توجًّههــا وبنيتهــا، إذ تصاعـدت معـدّلات الترشـيد المـادي للمجتمـع، أي إعـادة صياغتـه وصياغـة الإنسـان ذاتـه في ضـوء معايـير المنفعـة الماديـة والجـدوى الاقتصاديـة (وهـو عنـصر أسـاسي في منظومـة الحداثـة الغربيـة)، وزاد معـه تسلُّـع الإنسـان وتشـيّؤه (مـما يعنـي إزاحتـه عـن المركـز عـلى أن تحـل السـلع والأشـياء محلّـه).

وزادت نتيجــة لذلــك هيمنــة النــماذج الكمّيــة والتكنوقراطيــة وتصاعــدت عمليــات التنميـط وتغلغلـت العلاقـات البورجوازيـة التعاقديـة، الأمـر الـذي أدّى إلى تزايـد هيمنـة القيــم البرانيــة الماديــة مثــل: الكفــاءة في العمــل في الحيــاة العامــة مــع إهــمال الحيــاة الخاصـة - الاهتـمام بـدور المـرأة العاملـة (البرانيـة) مـع إهـمال دور المـرأة الأم (الجوانيـة) - الاهتـمام بالإنتاجيـة عـلى حسـاب القيـم الأخلاقيـة والاجتماعيـة الأساسـية (مثـل تماسـك الأسرة وضرورة توفـير الطمأنينـة للأطفـال) - اقتحـام الدولـة ووسـائل الإعـلام وقطـاع اللـذة لمجـال الحيـاة الخاصـة - إسـقاط أهميـة الإحسـاس بالأمـن النفـسي الداخـلي - إسـقاط أهميـة فكـرة المعنـى باعتبارهـا فكـرة ليسـت كميـة أو ماديـة ... إلـخ

وقـد لاحـظ أحـد علـماء الاجتـماع الغربيـين (كريسـتوفر لاش) أنـه منـذ أواخر السـتينيات أصبـح مـن المسـتحيل عـلى الأسرة الأمريكيـة أن تعيـش عـلى دخـل واحـد، أي أنـه لتحقيـق البقـاء المـادي أصبـح مـن الـلازم عـلى المـرأة أن تصبـح «يـدًا عاملـة» و«طاقـة إنتاجيـة» و«مـادة طبيعيـة برانيـة»، وأصبـح مـن الـضروري أن تتخـلّى عـن وظائفهـا الإنسـانية «التقليديـة» مثـل الأمومـة، أي أنـه تـم القضـاء عـلى آخـر معقـل ومـأوى للإنسـان وآخـر

مؤسسة وسيطة تقف بين الإنسان ورقعة الحياة العامة التي تديرها الدولة وتسيِّرها المؤسسات الاقتصادية ويوجِّهها قطاع اللذة.

وقد بلغ الترشيد (في الإطار المادي) درجة عالية من الشمول وتغلغل في كل جوانب الحياة العامة والخاصة حتّى أصبح العمل الإنساني هو العمل الذي يقوم به المرء نظير أجر نقدي محسوب (كمّ محدد) خاضع لقوانين العرض والطلب، على أن يؤديه في رقعة الحياة العامة أو يصبّ فيه في نهاية الأمر.

وهذا التعريف يستبعد بطبيعة الحال الأمومة وتنشئة الأطفال وغيرها من الأعمال المنزلية، فمثل هذه الأعمال لا يمكن حسابها بدقة، ولا يمكن أن تنال عليها الأنثى أجرًا نقديًا رغم أنها تستوعب جُل حياتها واهتمامها إن أرادت أن تؤديها بأمانة، ولا يمكن لأحد مراقبتها أثناء أدائها فهي تؤدّيها في رقعة الحياة الخاصة. باختصارٍ شديد عمل المرأة في المنزل هو عمل لا يمكن حساب «ثمنه» (مع أن «قيمته» مرتفعة للغاية)، ولذا فهو ليس «عملًا» حتّى أنه أصبح من الشائع الآن أن تجيب ربّة البيت عن سؤالٍ بخصوص نوعية عملها بقولها (لا أفعل شيئًا، فأنا أمكث في المنزل)، بمعنى أن وظيفتها كأمّ (رغم أهميتها) وعملها كأُمّ (رغم المشقّة التي تجدها في أدائه) هي (لا شيء)، فهو عملٌ لا تتقاضى عنه أجرًا، ولا يتم في رقعة الحياة العامة.

وهكذا تغلغلت المرجعية المادية (بتركيزها على الكمي والبراني) وتراجعت المرجعية الإنسانية الهيومانية (بتركيزها على الكيفي والجواني) وتراجع البُعد الإنساني الاجتماعي الذي يفترض مركزية إنسانية وطبيعة إنسانية متفرّدة تتمتّع بقدرٍ عالٍ من الثبات يميّزها عن قوانين الطبيعة المادية المتغيّرة، وتمّ إدراك الإنسان خارج أي سياق اجتماعي إنساني بحيث أصبح الإنسان كائنًا طبيعيًا ماديًا كمّيًا لا يشغل أية مركزية في الكون وليس له مكانة خاصة فيه، يسري عليه ما يسري على الأشياء الطبيعية/ المادية الأخرى، أي أنه تم تفكيك الإنسان تمامًا وتحويله من الإنسان المنفصل عن الطبيعة إلى الإنسان الطبيعي/ المادي، الذي يتّحد بها ويذوب فيها ويستمدّ معياريته منها، فيفقد الدال «إنسان» مدلوله الحقيقي، ويحلّ الكمّ محل الكيف والثمن محل القيمة.

ونحن نذهب إلى أن حركة الفيمينزم (التي نترجمها بحركة التمركز حول الأنثى) هي تعبيرٌ عن هذا التحوّل ذاته وعن إزاحة الإنسان من مركز الكون وعن هيمنة الطبيعة/ المادة على الإنسان.

وتُترجم هذه الرؤية نفسها إلى مرحلتين:

أ)- مرحلة واحدية إمبريالية وثنائية وواحدية صلبة ينقسم فيها العالَم إلى ذكور متمركزين تمامًا حول ذكورتهم ويحاولون أن يصرعوا الإناث ويهيمنوا عليهم، وإلى إناث متمركزات تمامًا حول أنوثتهن يحاولن بدورهن أن يصرعن الرجال ويُهيمِنّ عليهم.

ب)- سرعان ما تنحلّ هذه الواحدية الإمبريالية والثنائية والواحدية الصلبة لتصبح واحدية مادية سائلة لا تعرف فارقًا بين ذكرٍ أو أنثى. ولذا لا يتصارع الذكور مع الإناث وإنما يتفككون جميعهم ويذوبون في كيانٍ سديمي واحد لا معالم له ولا قسمات.

٤- الواحدية الإمبريالية، والثنائية والواحدية الصلبة، والتمركز حول الأنثى.

تؤكِّد حركة التمركز حول الأنثى في إحدى جوانبها الفوارق العميقة بين الرجل والمرأة، وتصدر عن رؤية واحدية إمبريالية وثنائية الأنا والآخر الصلبة كأنه لا توجد مرجعية مشتركة بينهما، وكأنه لا توجد إنسانية جوهرية مشتركة تجمع بينهما. ولذا فدور المرأة كأُمّ ليس أمرًا مهمًّا، ومؤسسة الأسرة من ثمّ تُعَدّ عبئًا لا يُطاق.

فالمرأة متمركزة حول ذاتها تشير إلى ذاتها، مكتفية بذاتها، تودّ «اكتشاف» ذاتها و «تحقيقها» خارج أي إطار اجتماعي، في حالة صراع كوني أزلي مع الرجل المتمركز حول ذاته، وكأنها الشعب المختار في مواجهة الأغيار، أي أنه بدأت عملية تفكيك تدريجية لمقولة المرأة كما تمّ تعريفها عَبْر التاريخ الإنساني وفي إطار المرجعية الإنسانية، لتحلّ محلها مقولة جديدة تمامًا تُسمّى (المرأة) أيضًا ولكنها مختلفة في جوهرها عن سابقتها. ومن ثمّ تتحوّل حركة التمركز حول الأنثى من حركة تدور حول فكرة الحقوق الاجتماعية والإنسانية للمرأة إلى حركة تدور حول فكرة الهوية، ومن رؤية خاصة بحقوق المرأة في المجتمع الإنساني إلى رؤية معرفية أنثروبولوجية اجتماعية شاملة تختص بقضايا مثل: دور المرأة في التاريخ والدلالة الأنثوية للرموز التي يستخدمها الإنسان. وإذا كانت حركة تحرير المرأة تدور حول قضية تحقيق العدالة للمرأة داخل المجتمع، فإن حركة التمركز حول الأنثى تقف على النقيض من ذلك، فهي تصدر عن

مفهوم صراعي للعالَم، حيث تتمركز الأنثى على ذاتها ويتمركز الذكر هو الآخر على ذاته، ويصبح تاريخ الحضارة البشرية هو تاريخ الصراع بين الرجل والمرأة وهيمنة الذكر على الأنثى ومحاولتها التحرر من هذه الهيمنة.

وتذهب بعض التواريخ الأيديولوجية المتمركزة حول الأنثى إلى أن هيمنة الذكر على الأنثى تمّت إثر معركة أو مجموعة من المعارك حدثت في عصور موغِلة في القِدم حينما كانت المجتمعات كلها مجتمعات أمومية (ماترياركي) تسيطر عليها الإناث أو الأمهات، وكانت الآلهة إناثًا، وكان التنظيم الاجتماعي ذاته يتصف بالأنوثة، أي بالرِقّة والوِئام والاستدارة (التي تشبه نهود الإناث وعضو التأنيث).

ثم سيطر الذكور وأسّسوا مجتمعًا مبنيًا على الصراع والسلاح (الذي يشبه عضو التذكير) وعلى الغزو (الذي يشبه اقتحام الذكر للأنثى).

بل إن كل التاريخ أصبح يدور حول مركز واحد هو: الرجل عضو التذكير- السُلطة - الإله الذكر- الأب وهذه هي المجتمعات الأبوية البطريركية (بطرياركي)

ويتحّدث دعاة ما بعد الحداثة والتمركز حول الأنثى عن اللوجوس (أي الكلمة والمُطلَق والمركز) والفالوس (أي عضو التذكير). وهم يذهبون إلى أن العالَم ليس متمركزًا حول اللوجوس وحسب (لوجوسنترك) كما يدّعي بعض الذكور من دعاة ما بعد الحداثة، وإنما هو متمركز حول عضو التذكير (فالوجوسنترك).

وسرد أحداث التاريخ من ثمّ يتم من وجهة نظر ذكورية بحتة ويستبعد الإناث تمامًا. ومن ثمّ يرى دعاة ما بعد الحداثة والتمركز حول الأنثى ضرورة وضع «نهاية» لهذا التاريخ وتفكيك هذا العالَم الذكوري.

وانطلاقًا من هذه الرؤية للتاريخ ينادي دعاة التمركز حول الأنثى بالتجريب الدائم والمستمر ويطرحون برنامجًا ثوريًا يدعو إلى إعادة صياغة كل شيء: التاريخ واللغة والرموز، بل الطبيعة البشرية ذاتها كما تحققت عبر التاريخ وكما تبدّت في مؤسسات تاريخية وكما تجلّت في أعمال فنيّة، فهذا التحقق والتبدّي والتجلّي إن هو إلا انحراف عن مسار التاريخ الحقيقي.

وفي مجال وضع هذا البرنامج «الثوري» موضع التنفيذ ينادي دعاة حركة التمركز حول الأنثى بضرورة إعادة سرد التاريخ من وجهة نظر أنثوية (أي متمركزة حول

الأنثـى)، بـل وأُعيـد تسـمية التاريـخ، فهـو بالإنجليزيـة (هيسـتوري) التـي وجـد بعـض الأذكيـاء أنهـا تعنـي (قصّـة) فتقَـرر تغيـير اسـم التاريـخ ليصبـح (قصّتهـا)، أي أن تاريـخ الذكـور مختلـف تمامًـا عـن تاريـخ الإنـاث (تمامًـا مثـل «التاريـخ اليهـودي» المسـتقل عـن «التاريـخ الإنسـاني»).

والرمـوز التـي فرضهـا الذكـور لابـد أن تضـاف لهـا رمـوز أنثويـة تعـبّر عـن الهويـة الأنثوية المُسـتقِلّة، ومنتجـات الإنسـان الفنيـة لابـد أن تُعـبِّر عـن الأنثـى وآلامهـا. ومـن هنـا التركيـز الشـديد في الأدب الغـربي الحديـث عـلى الجوانـب الصراعيـة في علاقـة الرجـل بالمـرأة وعـلى موضوعـات أدبيـة مثـل: الاغتصـاب. والهـدف الأسـاسي لحركـة التمركـز حـول الأنثـى، في نهاية الأمـر وفي التحليـل الأخـير، هـو رفـع وعـي النسـاء بأنفسَـهِنّ كنِسـاء، وتحسـين أدائهـن في المعركـة الأزليـة مـع الرجـال وتسييسـهن، لا بالمعنـى الشـائع المتـداول (أي أن يـدرك الإنسـان الأبعـاد الأساسـية للظواهـر المحيطـة بـه ولحقوقـه وواجباتـه السياسـية) وإنمـا بمعنـى أن نـدرك أن كل شيء إنمـا هـو تعبـير عـن هـذا الـصراع الكـوني بـين الذكـور والإنـاث.

ويـضرب تـيري إيجلتـون مثـلًا عـلى التحليـل التفكيـكي ذي الاتجـاه المتمركـز حـول الأنثـى الـذي يؤكـد فكـرة الـصراع هـذه، وكيـف أن أحـد قطبـيّ الـصراع لابـد أن يهيمـن عـلى الآخـر، فـلا حـب ولا تراحـم ولا إنسـانية مشـتركة، بـل صراع شرس لا يختلـف إلا مـن ناحيـة التفاصيـل عـن الـصراع بـين الطبقـات عنـد ماركـس، أو الـصراع بـين الأنـواع والأجنـاس عنـد دارويـن، أو الـصراع بـين الجنـس الأبيـض والأجنـاس «المختلفـة» الأخـرى حسـب التصـوّر العنـصري الإمبريـالي الغـربي.

يقـول تـيري إيجلتـون: «تذهـب المجتمعـات الذكوريـة المتمركـزة حـول الذكـر إلى أن الرجـل هـو الأصـل الثابـت (المبـدأ الأول-اللوجـوس) والمـرأة هـي العكـس». ولكـن المـرأة، في واقـع الأمـر، هـي الأصـل الآخـر المسـكوت عنـه. والمـرأة عكـس الرجـل، هـي مـا يمكـن أن يُشـار إليـه عـلى أنـه «الرجـل الآخـر»، فهـي ليسـت برَجُـل وإنمـا هـي رَجُـل معيـب ناقـص حسـب التصـوُّر المجتمعـات الذكوريـة.

ولكـن الرجـل هـو الرجـل لا في حـدّ ذاتـه، وإنمـا عـن طريـق اسـتبعاد عكسـه وإخفائـه، فهـو يُعـرِّف ذاتـه الرجوليـة كنقيـض للمـرأة، فـكل وجـوده وهويّتـه مرتبـط تمامًـا بمحاولتـه تأكيـد وجـوده المسـتقل عـن المـرأة، فهـو يُعـرّف ذاتـه في مواجهـة المـرأة، والمـرأة عـلى علاقـة قويّـة بـه باعتبارهـا صورتـه العكسـية. إنهـا صـورة مـا ليـس هـو، وهـي تعبـير عـن غيابـه الـذي يخـاف منـه، فهـو يريـد تأكيـد حضـوره الكامـل.

«ولكـن المـرأة تصبـح بذلـك عنـصرًا أساسـيًا في تذكـير الرجـل بذاتـه، فحضـوره مرتبـط بغيابهـا، ولـذا، فـإن الرجـل يحتـاج لهـذا الآخـر حتّـى حينـما ينبـذه، ويضطـر أن يعطـي هويـة إيجابيـة لما يعتـبره لا شيء، فكيانـه معتمـد عليهـا بشـكل طفيـلي ويتوقـف وجـوده عـلى اسـتبعادها، وهـو يسـتبعدها لأنهـا قـد لا تكـون هـذا الآخـر عـلى أيـة حـال. فلعلّهـا إشـارة عـلى شيء في الرجـل ذاتـه، شيء يـودّ أن يكبتـه ويسـتبعده خـارج وجـوده وخـارج حـدوده فلعـل مـا هـو خـارج الرجـل يوجـد داخلـه، ومـا هـو غريـب قريبًـا».

«لـكل هـذا يجـد الرجـل أنـه في حاجـة ماسـة إلى أن يحـرس الحـدود المُطلَقـة بـين عالَمـه وعالَـم المـرأة بـكل مـا أُوتي مـن قـوّة بسـبب خوفـه مـن أن تجـاوز الحـدود مسـألة مطروحـة وممكنـة، فالحـدود ليسـت كـما قـد تبـدو لأول وهلـة».

في هـذا الخِضـم الدفّـاق مـن الكلـمات والمفاهيـم يتصـوّر المـرء أن الحديـث قـد يكـون حديثًـا عـن مفهـوم الحـدود والأمـن في الدولـة الصهيونيـة، أو عـن علاقـة الاتحـاد السـوفيتّي بالولايـات المتحـدة إبّـان فـترة الحـرب البـاردة، أو عـن حـروب الرجـل الأبيـض ضـد شـعوب آسـيا وأفريقيـا، وليـس عـن علاقـة الرجـل بالمـرأة. (أخبرتنـي صديقـة مـن رائِـدات حركـة التمركـز حـول الأنثـى أن العلاقـة الجنسـية بـين الرجـل والمـرأة هـي في جوهرهـا مواجهـة سياسـية (كـذا) فـكان ردّي عليهـا: إمّـا أنهـا لا تعـرف شـيئًا عـن العلاقـات الجنسـية أو عـن المواجهـة السياسـية).

هـذه الرؤيـة الصراعيـة الداروينيـة الشرسـة تتبـدّى في رؤيـة حركـة التمركـز حـول الأنثـى لأحاسـيس كل مـن المـرأة والرجـل. ففـي غيـاب الإنسـانية المشـتركة لا يمكـن أن تكـون هنـاك أحاسـيس إنسـانية مشـتركة بـين الذكـر والانثـى، فتركيبـة جسـدهما مختلفـة وطبيعتهـا الفسـيولوجية مختلفـة (والإنسـان الطبيعـي/ المـادي يعيـش في الجسـد وحـده، فضـاؤه محـدد بفضـاء الجسـد).

فالرجـل عـلى سـبيل المثـال لا يحمـل ولا يلـد، ولـذا فهـو لا يمكنـه أن يشـعر بـآلام المـرأة، وأحزانهـا وأفراحهـا، في فـترة الحمـل ولحظـة الـولادة، فهـي وحيـدة مـع جسـدها (ولـذا تقـوم إحـدى مستشـفيات الـولادة في الولايـات المتحـدة بعقـد دورات تدريبيـة للرجـال حتّـى يتعلّمـوا آلام المـرأة. ومـن ضمـن التدريبـات إعطـاء الـزوج بطنًـا منتفخًـا مـن البلاسـتيك يرتديـه كي يشـعر بشـعور زوجتـه الحامـل، وكأن الحمـل والـولادة مسـألة ماديـة برانيـة تمامًـا: مجـرّد «حمـل» للأثقـال البلاسـتيك!).

وتتبدّى نفس السمة، أي الانفصال الكامل في الرؤية والأحاسيس بين الرجل والمرأة وإنكار وجود طبيعة بشرية مشتركة، في موقف حركة التمركز حول الأنثى من اللغة. إذ تذهب هذه الرؤية إلى أن لغة النساء مختلفة تمامًا عن لغة الرجال، فهي لغة ملتوية لعوب كجسد المرأة (الجسد مرة أخرى، الجسد دائمًا، الجسد في البداية والنهاية). ولذا فالتواصل بين الذكر والأنثى ليس ممكنًا وإن تَمّ فهو غير كاملًا، ويتم الهجوم على ما يُسمّى «ذكورة اللغة» والدعوة إلى «تأنيثها» واللغات التي تُفضِّل صيغة التذكير على صيغة التأنيث، لابد أن يُعاد بناؤها بحيث تستخدم صيغًا محايدة أو صيغًا ذكورية أنثوية. ولذا كلمتا «هو» بالإنجليزية:(هِي)، و«هيَ» بالإنجليزية: (شِي)، على هذا النحو، حتّى لا يظن أحد أن هناك أي تفضيل للرجل على المرأة.

وفي محاولة التفريق الكامل بين الرجل والمرأة وتأنيث اللغة يُعاد كتابة كلمة «نساء»على النحو التالي(وومان) حتى لا تحتوي كلمة نساء بالإنجليزية على كلمة (مين)، أي رجال والعياذ بالله، ولوحظ أن «رجل الثلج» «رجل» ومن ثم تمّ تعديل اسمه ليصبح بدلًا من (سنومان) إلى «امرأة الثلج» بالإنجليزية (سنووومان)، أو حتّى «إنسان الثلج» بالإنجليزية (سنوبرسون).

ونفس الشيء ينطبق على الكلمات المستخدمة للإشارة إلى الذات الإلهية فيجب الابتعاد عن الإشارة إلى الإله باعتباره ذكرًا، إذ يجب إن يُشار إليه باعتباره ذكرًا وأنثى في ذات الوقت، فيُقال على سبيل المِثال «إن الخالق هو الذي/ هي التي، وضع/ وضعت ...إلخ»، بل ويُشار إليه أحيانًا بالمؤنث وحسب، فهو «ملكة الدنيا»، و «وسيّدة الكون».

كما أن بعض دعاة حركة التمركز حول الأنثى يستخدمون كلمات لا جنس لها (بالإنجليزية: أن جندرد ..) مثل «فريند» (صديق)، و «كومبانيون» (رفيق)، و «كو كريتور» (المشارك في الخلق) للإشارة إلى الإله.

وكل هذا من لغو الحديث، وهو ليس برنامجًا للإصلاح وإنما هجوم على اللغة البشرية وحدودها وتشويه لها. فهل نحن نُفكّر في «المقاومة» باعتبارها أنثى وفي «الصمود» باعتباره ذكرًا؟ وهل نفكّر في «الأمانة» و «الخيانة» باعتبارهما إناثًا، أمّا «الملاك» و «الشيطان» فنُفكّر فيهما باعتبارهما ذكورًا؟ وحينما نقول «أبواب»، هل نفكّر في أعضاء التذكير، بينما نفكّر في أعضاء التأنيث حينما نقول «بوّابات»، أم أن

هـذا هـو وجـدان الحلوليـين الطبيعيـين الماديـين الذيـن يسـتخدمون الجسـد كعنـصر أسـاسي لإدراك كل شيء؟ ثـم تضيـق الدائـرة لتصبـح أعضـاء التذكـير والتأنيـث هـي الصـور المجازيـة الوحيـدة التـي يمكنهـم إدراك العالَـم مـن خلالهـا؟ وهـل يمكـن أن يكـون اسـتخدام كلمـة «إنسـان»، (وهـي تعبـير عـن الذكـر والأنثـى) حـلًّا للمشـكلة؟ الإجابـة، بطبيعـة الحـال، بالنفـي، لأن المهـم مـن وجهـة نظـر المتمركزيـن حـول الأنثـى هـو طـرح برامـج إصلاحيـة مسـتحيلة، غـير قابلـة للتنفيـذ، وإجـراء تجـارب مسـتمرة بـلا مـاضي ولا ذاكـرة ولا فهـم، وذلـك حتّـى يتـم تقويـض حـدود اللغـة القائمـة والمرجعيـة الإنسـانية المشـتركة المتجـاوزة وكل المنظومـات القيميـة.

وتتضّـح الرؤيـة الواحديـة والثنائيـة الصراعيـة الصلبـة في الإشـارات المتكـررة في أدبيـات حركـة التمركـز حـول الأنثـى إلى المـرأة باعتبارهـا أقلّيـة، وكلمـة «أقلّيـة» هنـا لا تعنـي أقلّيـة عدديـة مضطهـدة وإنمـا تعنـي في واقـع الأمـر أنـه لا توجـد أغلبيـة مـن أي نـوع (إنسـانية مشـتركة) ولا يوجـد معيـار يحكـم بـه، فالجميـع متسـاوون ولا يمكـن الحكـم عـلى أحـد.

وتصـل هـذه الرؤيـة قمّتهـا (أو هوّتهـا) حينـما تقـرر الأنثـى أن تديـر ظهرهـا للآخـر/ الذكـر تمامًـا، فهـي مرجعيـة ذاتهـا وموضـع الحلـول ولا تشـير إلا إلى ذاتهـا، فهـي سـوبرمان، ولـذا تعلـن اسـتقلالها الكامـل عنـه، وحينئـذ يصبـح السـحاق التعبـير النهـائي عـن الواحديـة الصلبـة، وهـو الأمـر الطبيعـي الوحيـد المتـاح للمـرأة التـي ترفـض أن تؤكِّـد «إنسـانيّتها المشـتركة» التـي لا يمكـن أن تتحقـق إلا داخـل إطـار اجتماعـي وسـياق تاريخـي، وبـدلًا مـن ذلـك تؤكـد «نسـوانيّتها»، أي ذاتهـا الأنثويـة المنفصلـة التـي لا توجـد في أي سـياق تاريخـي أو داخـل أي إطـار اجتماعـي.

وكـما قالـت إحـدى دعـاة التمركـز حـول الأنثـى المسـاحقات: «إذا كانـت الفيمينـزم هـي النظريـة، فالسـحاق هـو التطبيـق».

«If feminism is the theory, lesbianism is the practice».

ويصبـح مـن الطبيعـي ألا تلجـأ المـرأة للرجـل لإنجـاب الأطفـال، بـل يمكـن أن تلجـأ للمعامـل والإجـراءات العلميـة «الطبيعيـة» المختلفـة (المُعقّمـة مـن التاريـخ والمجتمـع والقيـم) التـي تسـتبعد الرجـل كشريـكٍ في إنسـانية مشـتركة.

وهكـذا تُصَفّـى الازدواجيـة تمامًـا ويُحسَـم الـصراع لنصـل إلى حالـة مـن الواحديـة الأنثويـة الصلبـة والتمركـز الـلا إنسـاني حـول الـذات الأنثويـة، وإلى نهايـة التاريـخ المتمركـز حـول الأنثـى.

٥- الواحدية السائلة وذوبان الأنثى.

فِكر التمركز حول الأنثى ينتمي إلى نمط أساسي في الفِكر المادي أشرنا إليه من قبل (الانتقال من التمركز حول الذات الإنسانية إلى التمركز حول الطبيعة/ المادة، ومن عالَمٍ يحوي مركزه داخله إلى عالَمٍ بلا مركز). ولذا نجد أن تفكيك مقولة المرأة (الإنسان الإنسان) يأخذ شكلين متناقضين، أوّلهما هو الذي تناولناه في الجزء السابق من هذه الدراسة، أي تحوّل المرأة إلى كائن متمركز حول ذاته يشير إلى ذاته مما أدّى إلى ظهور التمركز المُتطَرِّف حول الذات الأنثوية والعداء الشرس للذكور والصراع الدارويني المستمر بينهما (واحدية إمبريالية وثنائية وواحدية صلبة). أما الشكل الثاني فهو ما سمّيته «الواحدية السائلة». والواحدية السائلة كامنة في الواحدية الصلبة، فبَعد أن تتحوّل المرأة من إنسان إنسان إلى كائن طبيعي/ مادي يُرَد إلى عناصر مادية ويُفَسّر في إطارها، بحيث لا تشير المرأة إلى ذاتها وإنما إلى الطبيعة/ المادة، يتم تسويتها بالرجل أو الإنسان الطبيعي في جميع الوجوه بحيث لا تختلف عنه في أي شيء، دورها لا يختلف عن دوره، فكلاهما إنسان طبيعي/ مادي، وما يجمعهما ليس إنسانيتهما المشتركة وإنما ماديتهما المشتركة، فيتم اختزالهما إلى مستوى طبيعي/ مادي عام واحد لا يكترث بذكورة الذكر أو أنوثة الأنثى أو يسوِّي بينهما، فالقانون الطبيعي/ المادي العام لا يكترث بالخصوصية أو الثنائية. كما أن العالَم متعدد المراكز لا يكترث بأية فروق ظاهرة أو باطنة، فهو عالَم سائل لا مركز له، لا يمكن إصدار أحكام على أي شيء.

كل هذا يؤدي إلى ظهور الجنس الواحد أو الجنس الوسط بين الجنسين (بالإنجليزية: يوني سكس)، أي أنه تم رد الواقع إلى عنصر واحد أو مبدأ واحد ينكر أي شكل من أشكال عدم التجانس أو أي تنوُّع، بل وينكر وجود ثنائية ذكر/ أنثى، فالذكر مثل الأنثى والأنثى مثل الذكر وكلاهما مجرد إنسان طبيعي/ مادي.

وهكذا تتحوّل السوبرمان، عدوة الرجل، إلى سبومان، ليس لها هوية أنثوية مستقلة، فهي أقل من امرأة، امرأة ناقصة، تبذل قصاري جهدها أن تكون «كاملة»، أي متطابقة تمامًا مع الرجل.

ولكـن في كلتـا الحالتـين سـواء كانـت سـوبرمان أم سـبومان، ليسـت المـرأة هـي الأم - الزوجـة - الأخـت - الحبيبـة التـي نعرفهـا والتـي لهـا دور مسـتقل داخـل إطـار الجماعـة الإنسـانية الشـاملة التـي تضـم الذكـور والإنـاث والصغـار والكبـار وإنمـا هـي شيء جديـد تمامًا، ومـع هـذا يُطلـق عليـه اصطـلاح «امـرأة».

وبسـقوط الأم الزوجـة والمـرأة، تسـقط الأسرة ويتراجـع الجوهـر الإنسـاني المشـترك ويصبح كل البـشر أفـرادًا طبيعيـين لـكُلٍّ مصلحتـه الخاصـة وقِصّتـه الصغـرى الخاصـة، كل إنسـان مثـل الـذرة التـي تصطـدم بالـذرات الأخـرى وتتصـارع معهـا، والجميـع يجابهـون الدولـة وقطـاع اللـذة والإعلانـات بمفردهـم، ويسـقطون في قبضـة الصـيرورة، ويتـم تسـوية الجميـع بالحيوانـات والأشـياء، وتسـود الواحديـة السـائلة التـي لا تعـرف الفـرق بـين الرجـل والمـرأة أو بـين الإنسـان والأشـياء.

ويتـم الإشـارة إلى الإلـه في مرحلـة الواحديـة السـائلة هـذه لا باعتبـاره هـو أو هـي، إذ يصـل الحيـاد قِمّتـه والسـيولة منتهاهـا، فيُشـار إليـه، كـما وَرَدَ في إحـدى ترجـمات الإنجيـل الأخـيرة، باعتبـاره ذكـرًا وأنثـى وشـيئًا.

فالإله هو .He/ She/ It

ومـن الصعـب عـلى المـرء أن يقـرر مـا إذا كانـت هـذه هـي نهايـة السـيولة، أم أن هنـاك المزيـد؟ فالتجريـب المنفتـح في اللغـة والتاريـخ والعلاقـات بـين البـشر مسـألة لا سـقف ولا حـدود ولا نهايـة لهـا.

٦- حركة التمركز حول الأنثى والنظام العالمي الجديد.

إن دعـاة حركـة تحريـر المـرأة يدركـون تمامًـا الحقيقـة البديهيـة الإنسـانية البسـيطة وهي أن ثمـة اختلافـات (بيولوجيـة ونفسـية واجتماعيـة) بـين الرجـل والمـرأة، وهـي اختلافـات تتفـاوت -مـن منظـور سـلوك كل منهـما- في درجـات العمـق والسـطحية. وتُعـبِّر عـن نفسـها في اختـلاف في توزيـع الأدوار بينهـما وفي تقسـيم العمـل، ولكـن بـدلًا مـن أن يحـاول دعـاة حركـة تحريـر المـرأة محـو هـذه الاختلافـات والقضـاء عليهـا قضـاءً مبرمًـا فإنهـم يبذلـون قصـارى جهدهـم للحيلولـة دون تحوّلهـا إلى ظلـم وتفـاوت اجتماعـي أو إنسـاني يـؤدي إلى توسـيع الهـوة بـين الذكـور والإنـاث.

أما دعاة حركة التمركز حول الأنثى فيتأرجحون وبعنف بين رؤية مواطن الاختلاف بين الرجل والمرأة باعتبارها هوّة سحيقة لا يمكن عبورها من جهة، وبين إنكار وجود أي اختلاف من جهة أخرى.

ولذا فهُمّ يرفضون فكرة توزيع الأدوار وتقسيم العمل ويؤكدون استحالة اللقاء بين الرجل والمرأة، ولا يكترثون بفكرة العدل ويحاولون إمّا توسيع الهوّة بين الرجال والإناث أو تسويتهم بعضهم بالبعض، فيُطالِبون بأن يصبح الذكور آباء وأمّهات في الوقت نفسه، وأن تصبح الإناث بدورهن أمّهات وآباء.

ولعل الهندسة الوراثية ستحلّ كثيراً من هذه «المشاكل» وستفتح باب التجريب اللامتناهي على مصراعيه بحيث يصبح بإمكان الرجل أن «يحمل» طفلًا (وليس مجرد بطن بلاستيك)، ويمكن تجاوز مشقّات الحمل نفسها من خلال عمليات الاستنساخ المريحة.

كما أن تعديل القوانين في الغرب سيتكفّل بكل ما قد يتبقّى من «مشاكل» شكلية قد تضع حدودًا على عملية التجريب، إذ بإمكان الأنثى أن تتزوّج من أنثى أو من رجل حسب ما يُسمّونه (التفضيل الجنسي).

بل إن الأمر يمتد ليشمل الأحاسيس الجوانية ذاتها، فالمرأة الحقيقية يجب ألّا تختلف مشاعرها عن مشاعر الرجل، والرجل الحقيقي يجب ألّا تختلف مشاعره عن مشاعر الأنثى.

وتقوم هوليود (أكبر آلية عرفها الجنس البشري لنشر الأخبار وإشاعة الرُؤى) بدور نشط في هذا المضمار، إذ بدأت تظهر أفلام فيها إناث يغوين الرجال، ورجال تَحمَر وجوههن من النساء (ولا مانع من استخدام نون النسوة هنا، حتّى نحطّم حدود اللغة تمامًا)، وليس الهدف من كل هذا توسيع آفاقنا وتحطيم القوالب الذهنية الجامدة التي يتعامل كل جنس من خلالها وسجنه فيها، وإنما هو ضرب فكرة المعيارية والإنسانية المشتركة في الصميم حتّى يتم تسوية الجميع. ولعل العلم الحديث، بما حقق من «تقدُّم» مذهل، قد يساعد في هذا المضمار بحيث يمكن للرجل أن يتناول كبسولة متمركزة حول الأنثى فيشعر بشعور الإناث ويتم تسويته تمامًا من الداخل، وتتناول المرأة هي الأخرى كبسولة متمركزة حول الذكر فتشعر بشعوره ويتم تسويتها من الداخل.

إن حركة تحرير المرأة، في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير، ترى أن ثمة إنسانية مشتركة بين كل البشر، رجالًا ونساءً، وأن هذه الرقعة الواسعة المشتركة بيننا هي الأساس الذي نتحاور على أساسه والإطار الذي نبحث داخله عن تحقيق المساواة. ولذا يمكن للرجل أن ينضم إلى حركة تحرير المرأة، ويمكنه أن يدخل في حوار بشأن ما يُطرَح من مطالب لضمان تحقيق العدالة للمرأة. ويمكن للمجتمع الإنساني، بذكوره وإناثه ، أن يتبنّى برنامجًا للإصلاح في هذا الاتجاه، ويمكن لكل من الرجال والنساء تأييده والوقوف وراءه.

أما حركة التمركز حول الأنثى فهي تنكر الإنسانية المشتركة، ولذا لا يمكن أن ينضم لها الرجال، فالرجل، باعتباره رجلًا، لا يمكنه أن يشعر بمشاعر المرأة، كما أنه مذنب يحمل وزر التاريخ الذكوري الأبوي، رغم أنه ليس مَن صنعه. كما تنكر حركة التمركز حول الأنثى الاختلاف، ومن ثَمّ لا مجال للتنوُّع ولا مجال لوجود الإنسانية كما نعرفها.

لِكُلِّ هذا، لا يوجد برنامج للإصلاح في حركة التمركز حول الأنثى ولا توجد محاولة جادة لتحقيق المساواة بين الرجل والمرأة أو إلى تغيير القوانين أو السياق الاجتماعي للحفاظ على إنسانية المرأة باعتبارها أُمًّا وزوجة وابنة وعضوًا في الأسرة والمجتمع.

وإن كان ثمة برنامجًا للإصلاح فسنجد أنه يصدر عن إطار تفكيكي يهدف إمّا إلى زيادة كفاءة المرأة في عملية الصراع مع الرجل أو إلى تسويتها معه، أي أنه في جميع الحالات ثمة إنكارًا للإنسانية المشتركة. ولذا فالبرنامج الإصلاحي هو برنامج يهدف إلى تغيير الطبيعة البشرية ومسار التاريخ والرموز واللغات.

٧- حركة التمركز حول الأنثى والصهيونية.

من الأمور الجديرة بالنظر والتدبُّر أن ثمة نقط تشابه واضحة بين حركة التمركز حول الأنثى وحركة مادية إمبريالية أخرى وهي الحركة الصهيونية، التي تنكر الإنسانية المشتركة فتُقسِّم البشر بصرامة بالغة إلى يهود وأغيار، وتصدر عن الإيمان بأن الأغيار (كل الأغيار) يحملون وزر تاريخ الاضطهاد الدائم لليهود (كل اليهود). وعزلة الأغيار عن اليهود كاملة إلى درجة أن الواحد لا يمكنه أن يشعر بشعور الآخر، فكلُّ إنسانٍ جزيرة مغلقة، مكتفية بذاتها، مرجعية ذاتها.

ومـن ثَـمّ يواجـه اليهـود العالَـم وحدَهـم في عُزلَتِهـم وبراءتهـم وفرادتهـم ومعاناتهـم التـي لا يشـاركهم فيهـا أحـد. فاليهـود شـعبٌ مختـار، لـه سـماته الخاصـة، ولـه حقوقـه المُطلَقـة، ورسـالته الخالـدة، وعذابـه الخـاص، فهـو موضـع الحلـول والكمـون، مرجعيـة ذاتـه، يسـتمد معياريتـه منهـا.

وهـو شـعبٌ لا يمكـن أن يهـدأ لـه بـال إلا بـأن يعـود إلى أرض أسـلافه (في فلسـطين) حيـث يمكنـه أن يتمتّـع بحقوقـه المُطلَقـة، ولـذا لا تبـذل الحركـة الصهيونيـة أي مجهـود في محاولـة الدفـاع عـن الحقـوق المدنيـة والسياسـية والدينيـة لأعضـاء المجتمعـات اليهوديـة في مجتمعاتهـم.

فمِثـل هـذه الجهـود (التـي تنبـع مـن الإيمـان بالإنسـانية المشـتركة والتـي يمكـن أن يسـاهم فيهـا كل مدافـع عـن حقـوق الإنسـان وكل متعاطـف مـع المسـتضعفين) هـي في واقـع الأمـر إحبـاط للمـشروع الصهيـوني الـذي يرمـي إلى وضـع نهايـة لتاريـخ اليهـود في المنفـى وتهجـير اليهـود إلى فلسـطين للقيـام بتجربـة جديـدة تمامًـا تقـع خـارج نطـاق التاريـخ اليهـودي، وهـي تجربـة الدولـة القوميـة ذات السـيادة.

في هـذا الإطـار توجّـه الحركـة الصهيونيـة جُـلّ جهودهـا لتعميـق الهـوّة بـين اليهـود والأغيـار لتحسـين أداء اليهـودي في عمليـة الـصراع حتّـى ينسـلخ عـن مجتمـع الأغيـار و «يعـود» إلى فلسـطين بعـد غيـاب مـدة ألفـيّ عـام.

وفي هـذا الإطـار يصبـح أعـداء السـامية (أي أعـداء اليهـود) «أصـدق أصدقائنـا»، (عـلى حـدّ قـول مؤسـس الحركـة الصهيونيـة، تيـودور هرتـزل).

ولنلاحـظ هنـا بعـض الثنائيـات الصلبـة: اليهـود ضـد الأغيـار - شـعب معـذّب في كل مـكان مقابـل شـعب مختـار - شـعب لا حقـوق لـه مقابـل شـعب لـه حقـوق مُطلَقـة.

ولنلاحـظ أن هـذه الثنائيـة الصلبـة تتحـوّل إلى واحديـة صهيونيـة صلبـة في الدولـة الصهيونيـة المسـتقلة، الدولـة اليهوديـة الخالصـة، حـين يصبـح المسـتوطنون هـم وحدهـم أصحـاب الحقـوق المُطلَقـة، فيجـد العـرب أنفسـهم في مجتمعـات اللاجئـين تنهمـر عليهـم القنابـل باسـم الدفـاع عـن الـذات اليهوديـة الخالصـة!

ولكـن كـما هـو الحـال في كل الحـركات الماديـة تنحـلّ الواحديـة الإمبرياليـة والثنائيـة والواحديـة الصلبـة إلى واحديـة سـائلة، فالصهيونيـة التـي تؤكـد حقـوق اليهـود المُطلَقـة

وفُرادَتهـم الكاملـة وترفـض التعـاون مـع الأغيـار تـرى أن وجـود اليهـود في المنفـى هـو حالـة «غـير طبيعيـة»، أي أن الفريـد يتحـوّل إلى الشـاذ.

ولـذا تـرى الصهيونيـة أنـه لابـد مـن «تطبيـع» اليهـود، أي تحويلهـم إلى كائنـات طبيعيـة، يعيشـون في دولـة قوميـة عاديـة، لا يختلفـون عـن بقيـة شـعوب الأرض.

وقـد انتهـى الأمـر بالحركـة الصهيونيـة التـي تُنـادي بحقـوق مُطلَقـة لليهـود وبسـيادة مُطلَقـة للدولـة وسـمات يهوديـة مُطلَقـة للمجتمـع بـأن أسسـت دولـة ذات توجُّـه أمريـكي واضـح في عالَـم السياسـة والثقافـة وتعتمـد بشـكل شـبه كامـل على دعـم الأغيـار الأمريكيين!

وهـذا هـو النمـط نفسـه الـذي وجدنـاه في حركـة التمركـز حـول الأنثـى، فمِـن جِهـة ثمـة تأكيـد لتفـرُّد اليهـود وعـداء الأغيـار لهـم لا يختلـف كثـيرًا عـن اتجـاه حركـة التمركـز حـول الأنثـى نحـو إعـلان الحـرب عـلى الرجـال، ومِـن جهـة أخـرى ثمـة محاولـة نشـطة تُبـذَل لدمـج اليهـود في عالَـم الأغيـار والذوبـان فيـه، لا تختلـف بدورهـا كثـيرًا عـن محاولـة الأنثـى الذوبـان في الرجـل وظهـور الـــ Uni-sex

والعالَـم الغـربي الـذي سـاند الدولـة الصهيونيـة (التـي تحـاول تفكيـك العالَـم العـربي الإسـلامي سياسـيًا وحضاريًـا) يسـاند بنفـس القـوة حـركات التمركـز حـول الأنثـى في بلادنـا، (ولعـلّ نشـاط السـفارة الهولنديـة في القاهـرة في هـذا المضـمار مثـلًا واضحًـا عـلى ذلـك يسـتحق المزيـد مـن الدراسـة).

فالعالَـم الغـربي الـذي أخفـق في عمليـة المواجهـة العسـكرية المبـاشرة مـع العالَـم الثالث، اكتشـف أن هـذه المواجهـة مُكلِّفـة وطويلـة ولا طاقـة لـه بهـا، ومِـن ثَـمّ فالتفكيـك هـو البديـل العمـلي الوحيـد.

كـما أدرك العالَـم الغـربي أن نجـاح مجتمعـات العالَـم الثالـث في مقاومتـه يعـود إلى تماسـكها، الـذي يعـود بـدوره إلى وجـود بنـاء أُسَري قـوي، لا يـزال قـادرًا عـلى توصيـل المنظومـات القيميـة والخصوصيـات القوميـة إلى أبنـاء المجتمـع، ومِـن ثَـمّ يمكنهـم الاحتفـاظ بذاكرتهـم التاريخيـة وبوعيهـم بثقافتهـم وهويتهـم وقيمهـم.

وهـذا ولا شـك يعنـي التصـدِّي لعمليـة العولمـة، التـي تعنـي الترشـيد (داخـل الإطـار المـادي الغـربي) لـكل المجتمعـات بحيـث يتحـوّل العالَـم في نهايـة الأمـر وفي التحليـل الأخـير إلى سـوق واحـد متجانـس يخضـع لقوانـين العـرض والطلـب الماديـة، يتحـرك فيـه نفـس

البشر والسلع في نفس الحيّز الأملس، بلا سدود أو حدود أو منظومات قيمية تعوق هذه الحركة.

وإذا كانت الأسرة هي اللبنة الأساسية في المجتمع، فإن الأُمّ هي اللبنة الأساسية في الأسرة ومن هنا تركيز النظام العالمي الجديد على قضايا الأنثى.

فالخطاب المتمركز حول الأنثى هو خطاب تفكيكي يعلن حتمية الصراع بين الذكر والأنثى وضرورة وضع نهاية للتاريخ الذكوري الأبوي وبداية التجريب بلا ذاكرة تاريخية، وهو خطاب يهدف إلى توليد القلق والضيق والملل وعدم الطمأنينة في نفس المرأة عن طريق إعادة تعريفها بحيث لا يمكن أن تتحقق هويّتها إلا خارج إطار الأسرة.

وإذا انسحبت المرأة من الأسرة تآكلت الأسرة وتهاوت، وتهاوى معها أهم الحصون ضد التغلغل الاستعماري والهيمنة الغربية وأهم المؤسسات التي يحتفظ الإنسان من خلالها بذاكرته التاريخية وهويّته القومية ومنظومته القيمية.

وبذلك يكون قد نجح النظام العالمي الجديد من خلال التفكيك في تحقيق الأهداف التي أخفق في تحقيقها النظام الاستعماري القديم من خلال المواجهة المباشرة.

٨- البحث عن بديل.

من الأجدر بنا أن ندرس قضية المرأة داخل إطارها التاريخي والإنساني، فندرك أن مشكلة المرأة مشكلة إنسانية لها سماتها الخاصة. كما يجب أن ننفض عن أنفسنا غبار التبعية الإدراكية ونبحث عن حلول لمشاكلنا نُوَلِّدها من نماذجنا المعرفية ومنظوماتنا القيمية والأخلاقية ومن إيماننا بإنسانيتنا المشتركة، وهي منظومات تؤكد أن المجتمع الإنساني يسبق الفرد (تمامًا كما يسبق الإنسان الطبيعة/ المادة).

ولذا بدلًا عن الحديث عن «حقوق الإنسان»، إنسان روسو الطبيعي الذي يعيش حسب قوانين الطبيعة، مما يضطرنا إلى الحديث عن «حقوق المرأة» الفرد، ثم أخيرًا عن «حقوق الطفل» الفرد، وقد يكون من الأجدر بنا أن نتحدّث عن «حقوق الأسرة» كنقطةِ بدء ثم يتفرّع عنها، وبعدها «حقوق الأفراد» الذين يكوِّنون هذه الأسرة، أي أننا سنبدأ بالكل (الإنساني الاجتماعي) ثم نتبعه بالأجزاء (الفردية).

ولـو اتّبعنـا هـذا النمـوذج، واتّخذنـا الأسرة نقطـة بـدء ووِحـدة تحليليـة، فـإن الحديـث عـن «تحقيـق الـذات بشـكل مُطلَـق» يصبـح أمـرًا ممجوجًـا ومرفوضًـا ولابـد أن يحـل محلـه الحديـث عـن «تحقيـق الـذات داخـل إطـار الأسرة».

وبـدلًا مـن الحديـث عـن «تحريـر المـرأة» كي «تحقـق ذاتهـا» ولذّتهـا ومتعتهـا، قـد يكـون مـن المفيـد أن نـدرس مـا حولنـا لنكتشـف أن أزمـة المـرأة هـي، في واقـع الأمـر، جـزء مـن أزمـة الإنسـان في العـصر الحديـث والتـي تنبـع مـن هـذه الحركيـة الهائلـة المرتبطـة بتزايـد مُعـدّلات الاسـتهلاك، التـي تسـم إيقـاع حياتنـا الحديثـة، ومـن وجـود هـذه الاختيـارات الاسـتهلاكية التـي لا حـصر لهـا ولا عـدد، والتـي تُحاصِرنـا وتحـدّ مـن حركتنـا.

إن الدراسـة المتأنّيـة سـتُبَيّن لنـا أن المشـكلة تنبـع مـن أن الرجـل قـد تـمّ «تحديثـه» بشـكل متطـرِّف وتـم اسـتيعابه في هـذه الحركيـة الاسـتهلاكية العميـاء بحيـث أصبحـت البدائـل المطروحـة أمامـه تفـوق بكثـير البدائـل المطروحـة أمـام المـرأة. ولكـن بمـا أن هـذه الحركيـة الاسـتهلاكية المتطرِّفـة هـي أحـد أسـباب أزمـة الإنسـان الحديـث، قـد يكـون مـن الأكـثر رشـدًا وعقلانيـة ألّا نطالـب بــ «تحريـر المـرأة» وألّا نحـاول أن نقـذف بهـا هـي الأخـرى في عالَـم السـوق والحركيـة الاسـتهلاكية، وأن نطالـب بـدلًا مـن ذلـك بتقييـد الرجـل أو وضـع قليـل مـن الحـدود عليـه وعـلى حركيّتـه بحيـث نُبطـئ مـن حركتـه فينسـلخ قليـلًا عـن عالَـم السـوق والاسـتهلاك وبذلـك يتناسـب إيقاعـه مـع إيقـاع المـرأة والأسرة وحـدود إنسـانيتنا المشـتركة.

وانطلاقًـا مـن هـذه الرؤيـة لابـد أن يُعـاد تعليـم الرجـل بحيـث يكتسـب بعـض خـبرات الأبـوّة والعيـش داخـل الأسرة والجماعـة، وهـي خـبرات فقدهـا الإنسـان الحديـث مـع تـآكل الأسرة ومـع تحرُّكـه المتطـرِّف في رقعـة الحيـاة العامـة. وبهـذه الطريقـة سـيكون بوِسـع الرجـل أن يشـارك في تنشـئة الأطفـال، وأن يعـرف عـن قـرب الجهـد الـذي تبذلـه المـرأة/ الأم، ومـن ثَـمّ يمكـن لإنسـانيتنا المشـتركة أن تؤكـد نفسـها مـرة أخـرى.

وهـذه اسـتراتيجية لا تختلـف كثـيرًا عـن اسـتراتيجية جماعـات الدفـاع عـن البيئـة (الخـضر).

فهـم يطالبـون الإنسـان الغـربي بـأن يُخفـض مـن حـرارة المجتمعـات الغربيـة وأن ينسـلخ قليـلًا عـن أيديولوجيـة التقـدُّم والغـزو والإنجـاز والإنتاجيـة عـلى أن يحـل محلّهـا أيديولوجيـة الاتـزان والتـوازن مـع الطبيعـة والـذات وإشـباع الحاجـات الإنسـانية الأساسـية بحيـث يتناسـب إيقـاع المجتمـع مـع إيقـاع الإنسـان.

ولعلّه قد يكون من المفيد ألّا نتحدّث عن «حق المرأة في العمل» (أي أن تعمل في رقعة الحياة العامة نظير أجر)، أي العمل المنتج ماديًا الذي يؤدّي إلى منتج مادي (سلع - خدمات). ونعيد صياغة رؤية الناس بحيث يُعاد تعريف العمل فيصبح «العمل الإنساني»، أي العمل المنتج إنسانيًا (وبذلك نؤكد أسبقية الإنساني على المادي والطبيعي).

وهنا تصبح الأمومة أهم «الأعمال المُنتجة» (وماذا يمكن أن يكون أكثر أهمية من تحويل الطفل الطبيعي إلى إنسان اجتماعي؟).

ومن ثَمّ يقل إحساس المرأة العاملة في المنزل بالغربة وعدم الجدوى، ويزداد احترام الرجل لها ويكفّ الجميع عن القول بأن المرأة العاملة في المنزل لا تعمل، وكأن عمل سكرتيرة في إحدى شركات التصدير والاستيراد أو إحدى شركات السياحة أكثر أهمية وجدوى من تنشئة الأطفال!

ولعلّنا قد نكتشف طرقًا جديدة لإعادة إنتاج الأسرة الممتدة بما توفِّره للإنسان من طمأنينة داخل المدينة الحديثة ذات الطرق القاسية والإيقاع المرعب، كأن نطوِّر طُرُزًا معمارية تُفعِّل الجيرة كمؤسسة وسيطة تشبه في وظيفتها الأسرة الممتدة.

وقد يمكننا التوصُّل ليوم عمل يمكن تقطيعه وتقسيمه ليتناسب مع مؤسسة الأسرة ولا يتعارض مع محاولة المرأة أن تقوم بدورها كأمّ وزوجة، بل إنه يمكن تعديل رقعة الحياة العامة ذاتها ومكان العمل يُخلق داخله حيّز إنساني.

ويمكننا أن نُعيد بعث الاقتصاد العائلي (بالإنجليزية : فاميلي إيكونومي) الذي أثبت كفاءته ومقدرته على الاستمرار وإنتاجيته العالية في المجتمعات الحديثة والتي يُقال لها «متقدِّمة» (سواء في اليابان أو الولايات المتحدة).

ولكن ما يهمنا هنا أنه شكل من أشكال علاقات الإنتاج التي لا تقوِّض الأسرة وتفككها، ويمكن للمرأة أن تشارك فيه دون أن تفقد هويّتها كأُمّ وزوجة.

ويمكن أيضًا تطوير نُظم تعليمية جديدة بحيث يمكن للمرأة أن تتعلّم وتستمر في تعليمها دون أن نُولِّد داخلها التوترات بين الرغبة المحمودة في التعلُّم والنزعة الكونية نحو الأمومة.

وهـذه الاقتراحـات الأوّليـة تهـدف إلى تقليـل الأعبـاء النفسـية الناجمـة عـن الأمومـة، وتحريـر المـرأة بعـض الـشيء مـن الأعبـاء المنزليـة البدنيـة، بحيـث نخلـق حيـّزًا خاصًـا بهـا يمكنهـا أن تمـارس فيـه إنسـانيتها دون أن تضطـر إلى تحطيـم الأسرة ودون أن تجعـل تحقيـق ذاتهـا مشروطًـا بتخلّيهـا عـن الأسرة وعـن دورهـا الاجتماعـي.

ويجـب أن يواكـب هـذا دراسـة جـادة ومتعمِّقـة، نقديـة وخلاّقـة، لظاهـرة تحريـر المـرأة في الغـرب داخـل إطـار الترشـيد المـادي وإطـار الفِكـر المـادي الصراعـي الواحـدي المتمركـز حـول الأنثـى. فعـلى سـبيل المِثـال يمكـن أن نـدرس المشـاكل الناجمـة عـن تـآكل الأسرة وتكلفتهـا الاجتماعيـة والماديـة.

وقـد قـرأت في إحـدى الدراسـات أن انسـحاب المـرأة مـن الأسرة واسـتيعابها في آليـات السـوق والحركيـة الاسـتهلاكية وتحوّلهـا إلى «طاقـة عامِلـة» في رقعـة الحيـاة العامـة و«وِحدة إنتاجيـة» في سـوق العمـل يـؤدي إلى غُربـة شـديدة عنـد الأطفـال مـما يحوّلهـم إلى عنـاصر مُدمّـرة.

وقـد رأى الباحـث صاحـب الدراسـة أن عمليـات التخريـب المتعمّـد في المـدارس تكلّـف البلايـين مـن الـدولارات وأنهـا مرتبطـة تمـام الارتبـاط بظاهـرة اختفـاء الأم. كـما يمكـن أيضًـا حسـاب الخسـارة النفسـية للطفـل والتـي يمكـن ترجمتهـا ماديًـا إلى أرقـام. وهـل يمكـن أيضًـا ربـط ارتفـاع معـدّلات الطـلاق بمعـدّلات انسـحاب المـرأة مـن الأسرة ومـن دور الأمومـة؟ (يُكلـف الطـلاق في الولايـات المتحـدة بلايـين الـدولارات أيضًـا).

ومــن المعــروف أن شركات التأمـين ترفـع أقسـاط التأمـين عـلى كل مَـن يُطلِّـق لأنـه يرتكـب عـددًا أكـبر مـن الحـوادث.

ويمكـن الإشـارة هنـا إلى مـا يُسـمّى ظاهـرة «تأنيـث الفقـر» التـي أصبحـت ظاهـرة اجتماعيـة معروفـة في الولايـات المتحـدة، إذ يبـدو أنـه في إطـار حريـة المـرأة وحريـة الرجـل، يتعايـش رجـل مـع امـرأة تُنجِـب منـه طفـلًا أو طفلـين عـادةً دون أن يرتبطـا بعقـد زواج. وبعـد فـترة قصـيرة أو طويلـة يتملّـك الرجـل الملـل وتنشـب المعـارك بـين الطرفـين فيُقـرر الرجـل أن «يحقـق ذاتـه» خـارج إطـار الأسرة فيحمـل متاعـه ويذهـب، تـاركًا الأم المهجـورة وحدهـا، ترعـى الطفلـين. فتزيـد أعباءهـا النفسـية والاجتماعيـة والاقتصاديـة (مهـما دفـع الرجـل مـن نفقـة) وازداد الرجـال متعـة وحركيـة اسـتهلاكية، أي أنـه تـمّ تأنيـث الفقـر، ويمكـن أن نضيـف أنـه تـم كذلـك تأنيـث الجهـد النفـسي والإرهـاق البـدني.

ولعلّ هذا من أهم الأسباب السوسيولوجية لزيادة معدّلات السحاق في المجتمعات الغربية، فهو يحل مشكلة ضرورة تفريغ الطاقة الجنسية للأنثى دون أن يُدخِلها في دوامة العلاقة مع الرجل التي تُورِدها موارد التهلكة والفقر والألم والهجران.

كما يمكن أن ندرس إنتاجية المجتمع ككل في إطار خروج المرأة للعمل في حقل الحياة العامة بدلًا من العمل في حقل الحياة الخاصة. فهناك من الدراسات ما يشير إلى إنتاجية المجتمع على مستوى الماكرو تتزايد مع اضطلاع المرأة بدور الزوجة والأم، إذ أنها تقوم بتربية الأطفال تربية صالحة، فيصبحون أعضاء منتجين في المجتمع، كما أنّها تهدئ من روع الجميع: الزوج والأبناء عند عودتهم من رقعة الحياة العامة، فيستعيد الجميع توازنهم وتتزايد إنتاجيتهم.

وثمة دراسات تشير إلى أن قلق المرأة بخصوص هويّتها وذاتها قد تزايد مع فقدانها وظيفتها ومكانتها كأمّ وزوجة، وأن هذا القلق له مردود سلبي للغاية على صحّتها النفسية وعلى محاولتها تحقيق ذاتها، وأنه هو الذي يؤدي إلى محاولة المرأة التشبُّه الشرس بالرجل. وظهور الـUni -sex

كما يجب أن نضع نصب أعيننا أثر كل مشروع اقتصادي إنتاجي على بناء الأسرة وعلى دور المرأة كأُمّ، فهناك حديث «عالمي» عن «الخصخصة»، ولم يدرس أحد أثر الخصخصة علينا كبشر، وتكلفتها المعنوية والمادية (مع العِلم أن التكلفة المعنوية تترجم نفسها بعد قليل إلى تكلفة مادية يمكن حسابها كمّيًا بشيء من الجهد). وأعتقد أن الخصخصة بلا ضابط سيكون لها أثر مُدمّر على الأسرة وعلى المرأة، فالخصخصة هي في واقع الأمر توسيع رقعة السوق، وآليات العرض والطلب، لتبتلع كل شيء.

كما يجب ألا يفوتنا أن نتصدّى لكثير من المشاريع التي يُقال لها تنموية والتي يفرضها البنك الدولي والتي تهدف في واقع الأمر إلى تحطيم الدول القومية ومؤسسة الأسرة التي يَرون أنها من أكبر معوّقات «التنمية» (أي التقدُّم المادي بغض النظر عن الثمن الإنساني مهما كانت فداحته).

والشيء نفسه ينطبق على بعض التشريعات التي تُصدِرها بعض المُنظّمات «الدولية» والتي تدور في إطار عقلية السوق الحر والخصخصة الكاملة لكل شيء بما في ذلك جسد الإنسان وروحه وضميره. ونحن لابد أن نستفيد من الخبرات والمَعونات الدولية شريطة ألا تتحوّل إلى معاول هدم تقوِّض أساس مجتمعاتنا.

وهنـاك العديـد مـن الدراسـات الأخـرى التـي تُبـيّن أن خصائـص المـرأة التشريحيـة ووظائفهـا البيولوجيـة لـه علاقـة بتكويـن شـخصيّتها وهويّتهـا وطموحهـا (وهـذه مـن المفارقـات التـي تسـتحق التسـجيل، فحركـة التمركـز حـول الأنثـى التـي تؤكـد مركزيـة جسـد الأنثـى في تحديـد هويّتهـا ينتهـي بهـا الأمـر إلى إنـكار أي أهميـة للجسـد وللخصائـص التشريحيـة والوظائـف البيولوجيـة، تمامًـا مثـل الحركـة الصهيونيـة التـي تؤكـد يهوديـة اليهـودي ثـم تحـاول تخليصـه منهـا).

ونحـن لا نذهـب مذهـب الماديـين الذيـن يقولون بأن جسـد المـرأة قدرهـا، وأن خصائصها التشريحيـة هـي مصيرهـا المحتـوم، ولكـن نقـول إن هـذا الجسـد وهـذه الخصائـص تفـرض عليهـا حـدودًا معينـة، وهـذه الحـدود تخلـق لهـا حيّـزًا أنثويًـا خاصًـا يفصلهـا عـن الرجـل دون أن يعزلهـا عنـه.

وقـد هـاج كثـيرٌ مـن دعـاة التمركـز حـول الأنثـى حينـما نـشر أحـد العلـماء دراسـة تُبـيّن أن كثـيرًا مـن البطـلات الرياضيـات مِمَـن احترفـن الرياضـة لا يحملـن إلا إذا توقّفـن عـن ممارسـة الرياضـة لعـدة سـنوات. وقـد نـشر أحـد العلـماء دراسـة طريفـة تُبـيّن أن ثمـة علاقـة مـا، لم يتمكّـن الباحـث مـن تحديدهـا بدقّـة، بـين العـادة الشـهرية عنـد المـرأة والعـرق الـذي يفـرزه الرجـل تحـت إبطـه.

ورغـم أن هـذه الدراسـة دراسـة أوّليـة للغايـة إلا أن حـركات التمركـز حـول الأنثـى حاولـت منـع نشرهـا وغيرهـا مـن الدراسـات، أي أن التوجُّـه الأيديولوجـي يصـل مـن الحـدة إلى محاولـة إنـكار الحقائـق العلميـة التـي قـد تقـوِّض مـن النظريـة، وكأننـا في المرحلـة السـتالينية حـين كان عـلى العلـماء أن يثبتـوا، بـكل مـا أُتـوا مـن قـوة، صـدق مقـولات الماديـة الجدليـة!

كـما يجـب أن نـرس الـدور المُدمِّـر لبعـض الـشركات «العالميـة» التـي تُشـكِّل مـا سـمّيته في دراسـةٍ سـابقة (الفـردوس الأرضي ١٩٧٩) «الإمبرياليـة النفسـية».

وإذا كانـت الإمبرياليـة التقليديـة تبحـث دائمًـا عـن أسـواق لسِـلعها وعمالـة رخيصـة، فالإمبرياليـة النفسـية لا تختلـف كثـيرًا عنهـا، إلا أنهـا جعلـت مـن وعـي الإنسـان ووجدانـه مجـال حركتهـا ونشـاطها، أي أنهـا لا تتحـرك في رقعـة الحيـاة العامـة البرانيـة، بـل في رقعـة الحيـاة الخاصـة الجوانيـة، وهـي سـوق يمكـن توسـيع حـدوده إلى مـا لا نهايـة، عـن طريـق توسـيع شـهوة الإنسـان وتوليـد حالـة مـن القلـق وعـدم الاتـزان والرضـا داخلـه، يتصـوّر أنـه لا يمكنـه تجاوزهـا إلا مـن خـلال اقتنـاء سـلع بعينهـا.

وقـد نشـأت عـدة صناعـات (رؤوس أموالهـا بلايـين الـدولارات) ركـزت بالـذات عـلى المـرأة. فـشركات مسـتحضرات التجميـل وأدواتـه جعلـت المـرأة هدفًـا أساسـيًا لهـا. فمـن خـلال آلاف الإعلانـات، يولـد في المـرأة إحسـاس بأنهـا إن لم تسـتخدم آلاف المسـاحيق والعطـور والكريمـات وخلافـه تفقـد جاذبيتهـا (عـادة الجنسـية) وتصبـح قبيحـة.

وبعـد ترسـيخ هـذه القناعـة تمامًـا في وجـدان الإنـاث يتـم تغيـير المسـاحيق كل عـام، ويُطلَـب مـن المـرأة أن تُغـيّر وجههـا لتصبـح «جديـدة دائمًـا»، «مرغوبـة أبـدًا»، وهكـذا تصبـح المـرأة سـوقًا متجـددة بشـكلٍ لا ينتهـي.

ولا تقـل صناعـة الأزيـاء شراسـةً عـن صناعـة مسـتحضرات التجميـل، فهـي صناعـة أصبـح لهـا قنـوات فضائيـة ونجـوم وأبطـال (معظمهـم مـن الشـواذ جنسـيًا، مـات منهـم خمسـة في عـامٍ واحـد بمـرض الإيـدز، ونجحـت صناعـة الأزيـاء في التكتُّـم عـلى الخـبر حتّـى لا تؤثـر عـلى مبيعاتهـا).

وفي كثـير مـن الأحيـان تقـترب عـروض الأزيـاء مـن الإباحيـة الصريحـة، فهـي تتفنّـن في طمـس الشـخصية الإنسـانية والاجتماعيـة للمـرأة وإبـراز مفاتِنهـا الجسـدية للتحـوّل إلى جسـم طبيعـي/ مـادي، سـوق عـام لا خصوصيـة لـه يمكـن هزيمتـه وتوظيفـه وحوسـلته (تحويلـه إلى وسـيلة). وهكـذا يتـم ترشـيد جسـد المـرأة ووجههـا في الإطـار المـادي ويتـم سـحبها مـن عالَـم الحيـاة الخاصـة والطمأنينـة إلى عالَـم الحيـاة العامـة والسـوق والهرولـة والقلـق.

ومـما يزيـد الطـين بلّـة، أن كُلًا مـن صناعـة مسـاحيق التجميـل وأدواتـه والأزيـاء تفـرض مقاييـس جماليـة يسـتحيل الالتـزام بهـا إلا لمجموعـة محـدودة مـن الإنـاث المتفرِّغـات لجسـدهن (مثـل الممثـلات أو عارضـات الأزيـاء أو فتيـات الإعلانـات)، وقـد تسـبّب هـذا في انتشـار الأمـراض النفسـية مثـل: مـرض أناركسـيا فورمـوزا، وهـو إحسـاس يتملّـك المـرأة مهـما بلغـت مـن جـمال ورشـاقة أنهـا قبيحـة وبدينـة، فتمتنـع عـن الأكل بسـبب قلقهـا الشـديد بخصـوص وزنهـا وجمالهـا، وفي بعـض الأحيـان تقـضي نحبهـا. ويبـدو أن المـرض منتـشر عـلى نطـاق واسـع (يُقـال إن الأمـيرة ديانـا كانـت مصابـة بـه بعـض الوقـت). ومثـل هـذه القضايـا تتناولهـا فـروع جديـدة في علـم الاجتـماع مثـل: سوسـيولوجيا الوجـه، وسوسـيولوجيا الجسـد.

ويسـاند عمليـات حوسـلة المـرأة (أي تحويلها إلى وسـيلة) هذه وتوسـيع نطـاق الإمبريالية النفسـية صناعـة الإعلانـات التـي تسـتخدم المـرأة لتصعيـد الرغبـات الاسـتهلاكية عنـد كل من

الرجل والمرأة، وتُعيد إنتاج صورة المرأة باعتبارها جسدًا ماديًا محضًا، موضوعًا للرغبة المادية المباشرة. ثم تأتي أخيرًا صناعة السينما في الولايات المتحدة (هوليود) التي تُعيد صياغة صورة المرأة في وجداننا جميعًا، فهي تنزع عن المرأة كل قداسة وتُعرّيها لا من ملابسها وحسب وإنما من إنسانيتها وكينونتها الحضارية والاجتماعية وخصوصيتها الثقافية، بحيث تصبح مثل الإنسان المقترح من قِبَل النظام العالمي الجديد: إنسان بلا ذاكرة ولا وعي، إنسان عصر ما بعد الحداثة والعالَم الذي لا مركز له (استخدم أحد الظرفاء اصطلاح «ما بَعد البكيني» (بالإنجليزية : بوست بكيني) على منوال ما بعد الحداثة (بالإنجليزية بوست مودرنست) ليُشير إلى هذا الاتجاه نحو التعرية الشاملة، وليوجّه أنظارنا نحو العلاقة بين تعرية المرأة من ملابسها وتعرية الإنسان من منظوماته القيمية وخصوصيته القومية).

ولعلّه قد يكون من المفيد أن نرى علاقة حركة التمركز حول الأنثى والمفاهيم الكامنة فيها بمشروع السوق الشرق أوسطية، فكلاهما معاد للتاريخ، وكلاهما يطالب الإنسان العربي أن ينسى ماضيه ووعيه وأن يبدأ من جديد.

ولعلّه قد يكون من المفيد أن ندرك العلاقة بين حركة التمركز حول الأنثى وظواهر جديدة في مجتمعنا مثل الاهتمام المحموم من قِبَل بعض الصُحف والمجلّات المصرية بالجنس، واستخدام العامية المصرية في هذه الصُحف وفي الإعلانات.

إن الجنس الذي تتناوله هذه الصُحف ليس شأنًا إنسانيًا مركّبًا وليس ظاهرة اجتماعية وتاريخية، وإنما هو تسلية وفضائح، أي أن عملية نزع القداسة عن الإنسان ليصبح موضوعًا بسيطًا طريفًا لا كائنًا مُركّبًا عظيمًا.

وفي هذا الإطار تصبح فضائح نجوم السينما وسيرهم الذاتية غير العطرة هي أهم الأخبار والصور المجازية الأساسية، ومن ثَمّ يتم تذويب الإنسان في سيرة فلانة الراقصة التي لم تنجز شيئًا في حيتها سوى سلسلة من الزيجات وعددًا من الفضائح.

واستخدام العامية لا يختلف كثيرًا عن ذلك، فلو أصبحت العامية وحدها هي مستودع ذاكرتنا التاريخية لفقدنا امرأ القيس والبُحتري وابن خلدون وابن سينا، أي فقدنا كل شيء، وتصبح كلاسكيّاتنا هي أغاني شكوكو وأقوال إسماعيل ياسين.

وأعتقد أن الإنسان الذي يقتدي بالراقصة فلانة ولا يتذكّر إلا بعض الأفلام والأغاني المصرية، هو إنسان تم تفريغه تمامًا وتفكيكه تمامًا، ومن ثَمّ يمكنه التحرُّك بكفاءة

عاليــة في الســوق الـشرق أوســطية، لأن الســوق العربيــة تتطلّــب إنســانًا آخــرًا لــه هويــة وذاكــرة ويحمــل منظومــة قيميــة.

إن حركــة التمركــز حــول الأنثــى هــي جــزء مــن هــذه الهجمــة الشــاملة ضــد قيمنــا وذاكرتنــا ووعينــا وخصوصياتنــا ويجــب أن نــدرك هــذا ونعيــه، حتّــى لا تكــون معركتنــا جزئيــة وغــير واعيــة بذاتهــا.

الخـاتِـمة.

هـذه كلهـا أفـكار مبدئيـة للغايـة، مجـرد خطـوط عامـة، ولكـن مـا يجمعهـا كلهـا أن نقطـة البـدء والوحـدة التحليليـة هـي الإنسـان الاجتماعـي وليـس الإنسـان الطبيعـي، وهـي الأسرة وليـس الفـرد المتشـظّي الوحيـد الـذي تكتسـحه وسـائل الإعـلام وتُحرِّكـه المؤسسـات الكـبرى.

وأرجـو ألا يُفهَـم مـن حديثـي أننـي أنكـر وجـود قضيـة المـرأة في مجتمعاتنـا العربيـة والإسـلامية، وأنـه لا يوجـد درجـات متفاوتـة مـن التمييـز ضدهـا، بـل والقمـع لهـا. فأنـا أعـرف (باعتبـاري أسـتاذًا في كليـة البنـات لسـنين طويلـة) أن ثمـة مشـكلة، حـادة وعميقـة، تتطلّـب حـلًّا عاجـلًا وجذريًـا، كـما أرجـو ألا يتصـوّر أحـد أننـي أُطالِـب بمنـع المـرأة مـن العمـل في رقعـة الحيـاة العامـة أو نظـير أجـر نقـدي، أو أننـي أُطالِـب بالحَجـر عليهـا عقليًـا وعاطفيًـا، كل مـا أُطالِـب بـه أن يتـم تناولنـا لقضيـة المـرأة مـن خـلال قضيـة الأسرة وفي إطـار إنسـانيتنا المشـتركة، وأن تكـون الأسرة (لا الفـرد الباحـث عـن متعتـه الفرديـة ومصلحتـه الشـخصية وحركيتـه الاسـتهلاكية) هـو الوحـدة التحليليـة ونقطـة الانطـلاق.

ومـن ثَـمّ فأنـا أُطالِـب بِـرَدّ الاعتبـار للأمومـة ولوظيفـة المـرأة كأُمّ وزوجـة، وأرى أن هـذه الوظيفـة «الإنسـانية»، و«الخاصـة» تسـبق أي وظائـف «إنتاجيـة» و«عامـة» أخـرى وإن كانـت لا تحبّهـا. كـما أُطالِـب بالحفـاظ عـلى الخِـلاف بـين الجنسـين عـلى ألا يتحـوّل هـذا إلى أسـاس للظلـم والتفـاوت.

ولأختتـم مقـالي هـذا بالإشـارة إلى واقعتـين قصيرتـين: واحـدة مـن حيـاتي الخاصـة، والأخـرى مـن حيـاتي العامـة.

حينـما ذهبنـا أنـا وزوجتـي (د. هـدى حجـازي) إلى الولايـات المتحـدة لاسـتكمال دراسـتنا كنـت مـن أكـبر المطالبـين بحريـة المـرأة في إطـار المسـاواة الكاملـة التـي تقـترب مـن التسـوية. وقـد التحقـت زوجتـي ببرنامـج الماجسـتير وآثـرت ألا تتفـرّغ تمامًـا للدراسـة حتّـى لا تتعـارض دراسـتها مـع واجباتهـا كأُمّ. فحصلـت عـلى هـذه الدرجـة ببـطءٍ شـديد (مقـرر

واحد أو مقررين كل فصل دراسي). ولكن حينما سنحت أمامها الفرصة للالتحاق ببرنامج الدكتوراه أصبح الأمر يتطلّب التفرُّغ الكامل، ومن ثَمّ الاستعانة بجليسة للأطفال.

ولم أُمانِع كثيرًا في ذلك وطلبت منها أن تغتنم الفرصة وألا تُضيّع أي وقت (ولو فعلت لحصلت على درجة الدكتوراه وهي بَعد دون السادسة والعشرين، ولبدأت حياتها المهنية العامة في سن مبكّرة).

ولكني فوجئت بها ترفض، كما رفضت أن تعمل خارج المنزل لأنها كانت تشعر أن العلاقة المباشرة بين الأم والطفلة أمر لا يمكن تعويضه مدى الحياة. وأن دراستها وعلمها هذا سيحرم طفلتها من الحق في أن تستيقظ في الوقت التي تشاء وأن تقضي سنوات طفولتها الأولى في طمأنينة وسعادة وسكينة، ساعتها فزعت من نفسي لأنني، بسبب عقلية الإنجاز البروميثية والإنتاج الفاوستية التي هيمنت عليّ أنذاك. لم أدرك هذه الأمور الكونية البسيطة، وكبرت الطفلة وحصلت كل من الأمّ والطفلة على الدكتوراه، ولم ينتهِ التاريخ.

أما عن نفسي، فأعرف أنني أدركني شيء من الندم كما أعرف أنني أدركت الكثير من الحكمة.

أما الواقعة الثانية، فهي كما أسلفت من حياتي العامة. كنت أعرف سيدة أمريكية من رائدات حركة التمركز حول الأنثى كانت تزورني أنا وأسرتي عام ١٩٧٤ وعبّرت عن رغبتها في التعرُّف على رائدات حركة تحرير المرأة في مصر. فاتصلت بالدكتورة سهير القلماوي -رحمها الله- فتفضّلت مشكورة بدعوتنا كلنا على طعام الغذاء. وبدأ الحوار بين السيدة الأمريكية والدكتورة سهير فتحدّثتا عن المساواة بين الرجل والمرأة وعن تحرير المرأة. وكانت الدكتورة سهير توافقها على ما قالت إلى أن وصلت إلى نقطة شعرت عندها الدكتورة سهير أن الأمر لم يَعُد حديثًا عن تحرير المرأة وإنما عن تثويرها في مقابل الرجل وعزلها عنه.

هنا توقّفت الدكتورة سهير عن الحديث معها باللغة الإنجليزية والتفتت إليّ وقالت بالعربية: ماذا تريد هذه السيّدة؟ إن أخذنا برأيها، سيكون من المستحيل علينا أن نجمع بين الذكور والإناث مرة أخرى؟ ثم استمرت في الحديث بالإنجليزية.

وقد لخَّصتْ كلماتها البسيطة الرائعة الفروق الحادة بين حركة تحرير المرأة وحركة التمركز حول الأنثى، وبين مَن يدرك الإنسانية المشتركة ومَن يرفضها، وبين

مَـن يـرى أسبقية المجتمـع عـلى الفـرد ومَـن يـرى أن الـذات الفرديـة هـي البدايـة والنهايـة، وبـين مَـن يضـع الإنسـان قبـل الطبيعـة والمـادة ومَـن يـرى، عـلى العكـس مـن هـذا، أسـبقية المـادة عـلى وعـي الإنسـان وحضارتـه وتوجُّهـه الاجتماعـي والأخلاقـي. واللـه أعلـم.